

المظاهر الحضارية في الأدب الزياني Civilizational aspects of Zayani littérature

د. / طهراوي نعيمة

جامعة تلمسان

البريد الإلكتروني: tahraasma@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2019/08/03 م. تاريخ القبول: 2025/01/16 م. تاريخ النشر: 2025/12/31 م.

الملخص:

تعدّ حضارة المغرب الإسلامي من أرقى الحضارات التي شهدها العالم الإسلامي برمته، وقد ساعد في سطوعها دول تنافست فيما بينها، واحتلت الحضارة الزيانية الصدارة في ذلك الجو المليء بالحماس وحب المعرفة وتقدم الفكر وتطلعه إلى آفاق بعيدة. وقد اعتبر أدب بني زيان أساسا للازدهار والرقى، الحامل بين طياته أبرز مظاهر الحضارة الزيانية.

انطلاقا من كل ذلك تحاول هذه الدراسة الكشف عن مدى مواكبة الأدب الزياني لحضارة المغرب الإسلامي وتحديد معالمها.

الكلمات المفتاحية: أثر؛ أدب؛ حضارة؛ مظاهر؛ الزيانية.

Résumé:

La civilisation du Maghreb Islamique est considéré parmi les plus impressionnante civilisations Islamique a cause de la concurrence des payes voisins, la civilisation Zyanide été florissante durant l'apparition d'un atmosphère pleine d'enthousiasme, d'amour de la connaissance et de progrès intellectuelle poussé par des ambitions et des objectifs à long termes. La littérature de Bani Zienne était considérée comme étant référence de la prospérité et du progrès, portant entre autres les aspects les plus importants de la civilisation Zyanide.

À partir de cette étude on a tenté d'identifier à quel point la littérature Zayani du Maghreb Islamique été compatible avec la littérature Zyanide dans le Maghreb Islamique et exposer ses caractéristiques.

Mots-clés: L'effet; littérature; civilisation; manifestations; Zyanide.

مقدمة:

لقد تعددت المظاهر الحضارية في عهد الدولة الزيانية كونها من أبرز الحضارات التي وضعت بصماتها في التاريخ العربي الإسلامي، وبالضبط في بلاد المغرب الإسلامي الذي تعاقبت عليه الحضارات (الرومانية، الفينيقية، القرطاجية، والبنظية)، فكان لابد للإنسان العربي المسلم أن يبني هو أيضا لنفسه صرحا من التقدم، والازدهار في كل المجالات التي تمس حياة الإنسان أو ما اصطلح عليه باسم الحضارة (عاصمتها تلمسان)، الذي كان لها فضل التميز عن باقي الحضارات، وعما جادت به الأمم الغابرة.

وقد كان للطبيعة والعمران والعلم والاقتصاد والثقافة... وغيرها من المظاهر، دورا كبيرا في تحريك عقول ومشاعر الأدباء، فجاء أدبهم شعرا مرهفا مليئا بالمشاعر (حب، عشق، فرح، وحزن، وبكاء)، ونثرا هادفا يطغى عليه غرض الوصف، واصفين بذلك الأشياء وصفا دقيقا مفصلا يعانقه عنصر الخيال كاشفا الغطاء عن ما كانت تختزنه تلك المظاهر الحضارية من جمال وإتقان لدرجة جعلت من الأديب لا يجد عبارات مناسبة لسكب مشاعره المتدفقة أو وصف جمال ما رآه.

1- المظهر العمراني:

إن كثرة العمران، وتقن البنائين في تشييده، دليل قاطع على غاية الحضارة، كما قال ابن خلدون في المقدمة: "إنَّ الحَضَارَةَ غَايَةُ العُمُرَانِ ونِهَايَةُ لعمره"⁽¹⁾، فلكل حضارة طابع عمراني خاص بها يعكس صورة تقدمها وازدهارها الذي تزخر به.

وقد انطبق هذا المعيار على الحضارة العربية الإسلامية في بلاد المغرب بأنواعها الثلاثة الدينية، الحربية، والمدنية، فأبدع الفنان المسلم في بنائها فحلاها بأشكال هندسية اقتبسها من الطبيعة، مستخدما في ذلك مواد البناء النفيسة من رخام وغيره.

وإذا عدنا إلى الأبنية التي شيدت في عهد الدولة الزيانية نلاحظ بصمات ملوكها مازالت صامدة إلى حد الآن تعبر عن فترات زمنية متتالية، وللأسف أغلبها طمسته يد الاستعمار الفرنسي.

أولا- العمارة الدينية:

للدين النصيب الأوفر في العمارة الإسلامية، فلم تكن حضارة بلاد المغرب الإسلامي بمنأى عن هذا الجانب لكون نصفها الثاني روعي عقائدي، فاتخذت المساجد مكانا لتجمع المسلمين في كل موعد صلاة، وما يجلب الأنظار ويسحر العقول ذلك التميز الذي شمل أروقتها ومنابرها وثرياتها وقناديلها (المصابيح)، فجاءت مختلفة تماما عن مساجد المشرق (مصر ودمشق).

وبهذا أصبحت العمارة الدينية دليلا ماديا برهن للأجيال عن مدى تمسك سكان بلاد المغرب بدينهم، وعقيدتهم التي اعتبرت شرطا أساسيا في بناء صرح لحضارتهم.

1- ابن خلدون، 2007، ص. 47.

1- المساجد والجوامع: اتخذ أهل كل ديانة منذ القديم دورا للعبادة لإقامة طقوسهم الدينية فيها، فاتخذ المصريون القدامى واليهود المعابد، وشيد النصارى الكنائس في أقطار المعمورة أما المسلمون فخصصوا المساجد أو الجوامع مكانا مناسباً لعبادة الله وفيه يؤدون الصلوات الخمس وفيه يواظبون على حفظ القرآن الكريم، وذلك قبل ظهور الزوايا.

لم يكن المغرب الإسلامي بمنأى عن دول المشرق في بناء عدد كبير من المساجد وبمختلف الطوابع العمرانية، ولنقل صورة تلك المساجد وبالتحديد في القرنين السابع والثامن هجريين نستعرض قول محمد بن مرزوق التلمساني(*) عن الجوامع والمساجد التي أنشأت في المنصورة (**): وعنها قال:

"وأما ما أنشأه بمدينة تلمسان فمما يرجى من الله إعادة رسمه وتجديد آثاره فكان مما لم يعهد في سالف الأزمان ولا سبق شكله في قواعد البلدان، فمن ذلك جامع القصبة المشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وضعه وجمال شكله وترتيب رواقه واعتدال صحته وحسن ستاره ومعين مائه واتساع رحابه واحتفال ثرياته الفضية منها والصفيرية وغرابة منبره"⁽²⁾.

أخذنا الكاتب في جولة استطلاعية داخل معلم تاريخي وهو جامع المنصورة الذي تألق على جميع الجوامع في كامل المعمورة شكلاً وهندسة وحسناً وإبداعاً، فقام باستدراجنا إلى أروقته المنسجمة فيما بينها والمرتبة ترتيباً، ثم انتقل بنا إلى صحنه الذي يتوسطه، وبه الماء يجري غير منقطع، ومنه إلى رحابه الواسع المتسع، فتأخذك عيناك إلى أضواء ثرياته المترقصة بين أحضان جدرانه تزينها بألوانها الفضية والصفيرية، والمفاجأة الأكبر تكمن في شكل منبره العجيب الذي زاد هذا الجامع تألقاً على تألقه. فيأخذنا التفكير بعيداً إلى أن صانعه أراد أن يخرج عن المألوف بتصميمه بشكل مغاير، ليظهر بذلك إبداع الفنان المسلم في تلك الفترة من الزمن وعشقه للامتناهي لكل جديد، فتراه يطلق العنان لخياله لتصورات عدة فيسرع لتجسيدها في الواقع على شكل تحف تتماشى وثقافة شعبه من دين ومعتقدات متقاربا بشكل من الأشكال المساس بتلك المقدسات، وبطريقة غير مباشرة يكون قد ساهم بقدر بسيط في ازدهار حضارة أمته (حضارة المغرب الإسلامي).

*- هو أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني الملقب بالخطيب، ولد بتلمسان وبها نشأ وتلقى مبادئ العلوم ثم قام برحلات إلى بلاد المشرق إحداها لأداء فريضة الحج وأخرى علمية، ثم رجع إلى تلمسان وخلف عمه في الخطابة بجامع العباد كان لابن مرزوق دور هام في السياسة ولم يكن حظه في الأدب أقل منها، فله في فنون النثر وأغراض الشعر الشيء الكثير، ومن تصانيفه القيمة: شرح العمدة؛ محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن دحمان، 2001، ص. 275.

** - هي المدينة التي بناها بنو مرين غرب تلمسان حال حصارهم الطويل لها، وهي تبعد عنها بثلاث أميال؛ محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن دحمان، 2001، ص. 277.

2- ابن مرزوق الخطيب، 1981، ص. 402.

ثانياً - العمارة الحربية:

يعتبر الأمن عنصراً أساسياً لتحقيق التقدم والازدهار في جميع مجالات الحياة فبغايابه لا معنى لحياة الإنسان، فسر هذا الأخير (الإنسان) للحفاظ عليه وبشتى الطرق، خاصة إذا كان الإنسان يعيش داخل مجتمعات سكانية تتسم بالتنظيم وحسن التخطيط مستقرة في مكان واحد لا تعرف حياة التنقل والترحال بحثاً عن الكلا - كما كان يفعل العرب في العصر الجاهلي - فاتخذ من عمارة الأسوار والأبواب والأبراج حاجزاً صلباً أمام من تخول له نفسه الاعتداء على حدود دولته، فكان شكل بنائها يعبر عن القوة ودقة التصميم كل واحدة من هذه الأنواع تؤدي المهمة التي أنيطت بها.

1- الأسوار:

كانت تلمسان مدينة محصنة بسورين أحدهما داخلي والآخر خارجي يحيطان بها من كل جانب.
قال أبو حمو موسى الزياتي:

وَدَارُوا بِأَسْوَارِ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا كَدَوْرِ سِوَارٍ فَوْقَ أَبْهَى الْمَعَاصِمِ⁽³⁾

وردت كلمة (أسوار) بصيغة الجمع، وذلك دليل على أن تلمسان اشتملت على أسوار عدة لم يذكر أبو حمو موسى عددها، وقد أحاطت بمدينة التي شبهها بالمعصم في الجمال والبهاء.
يقول يحيى بن خلدون في البغية عن أبو حمو موسى: "أنه شيد الأسوار وحفر الخنادق وملاً المطامير والصناديق..."⁽⁴⁾.

فشاعة المساحة التي كانت بين الأسوار الخارجية والداخلية للمدينة وخصوبة التربة، كلاهما عاملان طبيعيان ساعدا أهالي تلمسان في استغلالها لزراعة أنواع مختلفة من الأشجار وتحويلها إلى جنة تبهر الناظر فكانت تلمسان بذلك محاطة بسور أخضر (البساتين) في رحاب السورين الداخلي والخارجي.
ومن قرأ رحلة العبدري يجده هو الآخر تحدث عن أسوار تلمسان فقال أن: "أسوارها أوثق الأسوار وأصحبها..."⁽⁵⁾.

تميزت هذه الأسوار بالإحكام والصلابة، وقد لفت شكلها ومواد صنعها أنظار من شاهدها عن قرب وتلمس جدرانها. وقد صممت خصيصاً لترعب الأعداء من خلال شكل بنائها المتقن، ولتظهر عظمة الدولة التي تتوسطها، ورغم متانة هذه الأسوار وقوتها إلا أنها دُعِمت بأبراج مراقبة تعلوها، وأبواب محكمة تسمح لهم بمراقبة الداخل والخارج من المدينة، والملاحظ في عهد الدولة الزيانية أنها كانت تغلق في الليل، وفي أيام الحصار.

3- ابن خلدون، د.ت، ص. 91.

4- نفسه، ص. 129.

5- محمد العبدري البلنسي، 1428هـ/2007م، ص. 28.

2- الأبواب:

الأبواب في تصميمها هي جزء مهم من الأسوار ومهمتها توفير الأمن داخل المدينة ومراقبة تحركات السكان باستمرار وبشكل منتظم، وإذا عدنا إلى بلاد المغرب الإسلامي وبالأخص الدولة الزيانية نجد عاصمتها تلمسان قد اشتملت على عدة أبواب توزعت على مختلف الجهات (الشرقية والغربية والجنوبية والشمالية) فمنها الثانوية، وجعلها أبو الفداء ثلاثة عشر باباً، ورئيسية عددها يحيى بن خلدون فقال: "ولها خمسة أبواب قبلة باب الجياد وشرقاً باب العقبة وشمالاً باب الحلوي وباب القرمدين وغرباً باب كشوط"⁽⁶⁾.

2-1- باب العقبة: يقع في شرق المدينة، وهو الباب القديم الذي ظل قائماً منذ تأسيس مدينة "أكادير"، بني بأحجار من بقايا الرومان⁽⁷⁾.

2-2- باب سيدي الحلوي: يقع هذا الباب في شمال المدينة، اتخذ أسماء عديدة منها: باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي، باب علي⁽⁸⁾.

2-3- باب القرمادين: يقع باب القرمادين، في الشمال الغربي من تلمسان، ويعتبر الحصن الدفاعي الأساسي، الذي يحمي مدخل المدينة من هذه الناحية التي بها المنية والملعب، ويبدو أنه كان يوجد بالقرب من الباب أفران لصناعة الفخار، والآجر، والقرميد، ولهذا سمي الباب بباب القرمادين⁽⁹⁾.

2-4- باب كشوط: ومعناه باب الأكشاك (جمع كشك)، يقع في الجهة الجنوبية الغربية، من المدينة أصبح يعرف فيما بعد، باب فاس، وكان يغمراسن قد أمر ببنائه وتحصينه بأبراج وأسوار عالية.⁽¹⁰⁾ أما عن تاريخ بنائه فقد قال يحيى ابن خلدون "في سنة ثمان وستين أمر - يغمراسن - رحمه الله ببناء باب كشوط"⁽¹¹⁾.

2-5- باب الجياد: يقع هذا الباب في الجهة الجنوبية من المدينة⁽¹²⁾، وسمي كذلك لقربه من اسطبل السلطان الخاص بتربية الخيل والعناية بها⁽¹³⁾.

6- ابن خلدون، د.ت، ص. 19

7- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 112.

8- نفس المرجع.

9- نفسه، ص. 113.

10- نفسه.

11- ابن خلدون، د.ت، ص. 115.

12- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 113.

13- ينظر: الحاج محمد بن رمضان شاوش، 2011، ص. 7.

يقول الثغري(*) - الخفيف -:

أَيُّهَا الْخَافِظُونَ عَهْدَ الْوِدَادِ
وَصَلُّوْهَا أَصَانِلًا بَلِيَالًا
جَدِّدُوا أُنْسَنَا بِبَابِ الْجِيَادِ
كَلَالٍ نُظْمَنَ فِي الْأَجْيَادِ⁽¹⁴⁾

يدعو الثغري كل من أبدى حبه وإعجابه بمدينة الحضارة تلمسان لتجديد زيارته لها، لأنه كان كل من يقصد باب الجياد يقدم وعدا بأنه سيعود يوما ما لحبه - معبرا عن ذلك بكلمة (وداد) - وشدة تعلقه بذلك المكان وشعوره بأنه يؤنس في وحدته كلما رأى بساتينه، وقد نعت هؤلاء بحافظي الوعود. ثم أرفق كلامه قائلا:

عَرَجَ بِمُنْعَرَجَاتِ بَابِ جِيَادِهَا
وَأَفْتَحَ بَابَ الرِّجَاءِ الْمُقْفَلِ⁽¹⁵⁾

فسبيل كل من أراد الدخول من باب الرجاء الذي يعتبر بابا من أبواب السور الداخلي للمدينة أن يمر بمنعطفات عديدة بعد أن قصد باب الجياد من السور الخارجي، وقد عبر عن تلك الطريق الملتوية والطويلة بصيغة الجمع لكلمة (منعرج/ منعرجات). قاصدا من كلامه أن الطريق كانت غير مستقيمة لعل السبب في ذلك كثرة البساتين في المنطقة الفاصلة بين البابين. وإذا عدنا إلى شعر ابن خميس في الوصف نجده هو الآخر قد خصص بيتا تحدث فيه عن هذا الباب قائلا:

وَسُحَّ عَلَى سَاحَاتِ بَابِ جِيَادِهَا
مُتَّ يُصَافِي ثُرْبَتَهَا وَيَصَافِحُ⁽¹⁶⁾

يدعو ابن خميس كل زائر أراد التجول بين أزقة تلمسان أن تكون وجهته الأولى باب الجياد لما سيراه حينئذ من مناظر خلابة تبهر ناظره، ويتمنى رؤيتها وهي الساحة المترتبة في مدخله زادتها جمالا صورة نزول زخات من المطر على تربتها ونتيجة لتمازجها فقد انبعثت رائحة طيبة منهما، فجسد الشاعر تلك الصورة في صورة صديقين تبادلا التحية عن طريق المصافحة فنجر عنها مشاعر المحبة، وفي ذلك كله راحة لنفسية السائح.

وكانت هذه الأبواب الرئيسية الخمسة واسعة، شيدت على جانبي كل واحد منها مراكز حراسة بمثابة أبراج صغيرة، مربعة الشكل لمراقبة الضواحي والأماكن المجاورة والداخلين إلى المدينة والخارجين منها

*- محمد بن يوسف القيسي التلمساني أبو عبد الله: شاعر أديب كاتب من أهل تلمسان من أشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها، وصفه المازوني بالإمام العلامة الأديب الأريب الكاتب، كان من شعراء بلاط السلطان أبي حمو موسى الثاني، ينظر: عادل نويهض، 1400هـ/ 1980، ص. 92.

14- يحيى بن خلدون، د.ت، ص. 560.

15- نفسه، ص. 2.

16- محمد مرتاض، 2004م، ص. 69.

باستمرار، وأقيمت في جوفها حجرات يقيم فيها الموظفون والحراس، والمكاسون(*) من الرجال والنساء، وأنشئت بالقرب منها دور لمزارعي المداخل⁽¹⁷⁾.

وإلى جانب هذه الأبواب ذكر الثغري باب آخر عرف بباب الحديد، وعنه قال:

وَإِذَا دَنَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ لِعُرُوبِهَا فَإِلَى تَلَمَّسَانَ الْأَصِيلَةِ فَدَخُلْ

مِنْ بَابٍ مَلْعَبِهَا لِبَابِ حَدِيدِهَا مُتَنَزِّهَا فِي كُلِّ حَقْلٍ مُحَفَّلٍ⁽¹⁸⁾

كان سكان المناطق المجاورة لمدينة تلمسان إذا جاء وقت غروب الشمس قصدوا باب الحديد في السور الداخلي الذي كان يقابله باب الملعب في السور الخارجي للمدينة، فقد كان ذلك وقت محدد لفتحهما مستقطبا العديد من الأهالي لحضور الاحتفالات التي كان ينظمها سلاطين بني زيان في المكان الفاصل بين البابين، وما عرف من تلك الاحتفالات سباق للخيل العربية الأصيلة في ملعب الخيل، ومنه سمي الباب باسمه لقربه منه.

ويبدو أن الأبواب التي ليس لنا وصف لها ومكان محدد بوجودها، هي عبارة عن ممرات أو فتحات في الاسوار العديدة التي تحتوي عليها مدينة تلمسان، على شكل أبواب صغيرة تفتح عند الحاجة، وكانت الأبواب الكبيرة تغلق في الليل، وإذا تعرضت المدينة للأخطار⁽¹⁹⁾.

3- الأبراج:

اهتم بنو زيان بتحصين مدينة تلمسان عن طريق ترصدهم لحركات أعدائهم بعدما حرصوا على بناء الأسوار الدفاعية أضافوا إليها عدة أبراج قوية وعالية للمراقبة، نذكر منها:

برج القشاقش: انشئ هذا البرج في جنوب المدينة أيضا في الموضع الجبلي المؤدي إلى هضبة لالاستي لمراقبة الجهة الجنوبية وحمايتها، وفي ذلك الوقت لحماية الطاحونة التي تزود أهل تلمسان بالذ⁽²⁰⁾.

برج إمامة: وهو عبارة عن قصر كبير بني على شكل قلعة مرتفعة تقع في الشمال الغربي من مدينة تلمسان، عرف سكانها محنا جمة، لا سيما فترة هجومات الغزاة المناوئين على المدينة⁽²¹⁾.

يقول الثغري: وَبُرُوجٌ مُشِيدَاتِ الْمَبَانِي بَادِيَاتُ السَّنَا كَشْهَبٍ بِيَوْدَادِي
رَقَّ فِيهَا النَّسِيمُ مِثْلَ نَسِيبِي وَصَفَا النَّهْرُ مِثْلَ صَفَرٍ وَدَادِي⁽²²⁾

*- المكاسون: من مكس الشخص. أي جمع ضريبة مرور البضائع من الجمرك.

17- يحي بن خلدون، د.ت، ص. 14.

18- نفسه، ص. 16.

19- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 113-114.

20- نفسه، ص. 112.

21- نفسه.

22- ابن خلدون، د.ت، ص. 560.

عبر الثغري عن عظمة أبراج بنو زيان بوصفها بالشموخ والعلو، فجاءت صورته المجازية في كونها تكاد تلامس نجوم السماء، ويلاحظ من فيها قرب ضوء البرق إليه، إلى أن انتقل بنا لصورة حقيقية تكمن في عليل نسيمها وطيب هوائها.

وقال أيضا:

قَدْ قَابَلْتُ زُهْرَ النُّجُومِ بَرْهَرِهَا وَبُرُوجَهَا بِبُرُوجِهَا وَقَبَابِهَا⁽²³⁾

فقد كان لهذه الأبراج مهمة كبيرة تمثلت في تسهيل عملية المراقبة، وتهيء بنو زيان لأي خطر خارجي.

4- الحصون:

الحصن هو المكان المناسب الذي كان يلجأ إليه الملوك لتحصين أنفسهم عند اشتداد الازمات، وتدهور الأحوال داخل دولتهم أو خارجها، فجاءت عمارتها مخصصة لمهمة واحدة وهي الحماية والاختباء من الأعداء، وقد عرفت الحضارات السابقة بناء عدة معاقل في أماكن بعيدة في الجبال العالية التي يصعب الوصول إليها.

وحضارة بلاد المغرب العربي الإسلامي مثلها مثل تلك الحضارات السابقة شهد اضطرابات سياسية فيما بين دولها ترجمتها العداوة التي كانت قائمة بين الدولة الزيانية والمرينية من جهة والحفصية من جهة أخرى ومحاولة بنو زيان في استتباب الأمن داخل دولتهم، قابلها تحسبهم لأي خطر خارجي أو داخلي يهددهم، وهذا سبب جعلهم يفكرون في مكان يحميهم، ويفرون إليه بجلدهم للعود مرة أخرى إلى ديارهم وهم أقوياء.

وقد أشار إلى مثل تلك الحصون السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني في وصيته الموجهة لابنه داعيا إياه ببناء حصن ينجيه من الأعداء فقال:

"اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتحصن لنفسك معقلا... تلجأ إليه عند الشدائد وتتحصن به من العدو والمعادن، وصفة المعقل أن يكون حصنا منيعا لا يرام، وركنا منيعا لا يضام، وذروة لا تفرع، وعقيلة لا تفرع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب، وقد اشتمل على الماء والاختزان، والعدد والإمكان، تجعل فيها ذخائر أموالك، وأثاثك وأمتعتك وأثقالك، تسكن فيها أجنادك وحماطك وقوادك، تحشنه بالرجال والرماة المترجلة والزعماء من الرجال المحصلة الذين لا يروعهم الحمام، ولا يخوفهم سل الحسام... وليكن غرس هذا الحصن ما يكون به الانتفاع مثل الزيتون والتين وما قارب من هذه الأنواع، وإن تأتى أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر، فنعم الحصن والشجر، وإن قدرت أن يكون بحره تحت حكمك فهو أحسن لنظمك، وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون وأحصن..."⁽²⁴⁾.

23- المقرئ، 1358هـ. / 1939م، ص. 332.

24- أبو حمو موسى الزياني، 1279هـ.، ص. 88-89.

أراد السلطان أبو حمو موسى الزياني أن يقنعنا من خلال المواصفات التي قدمها للحصن، أنَّ له دراية كبيرة بفن العمارة والتشييد فجاء تصويره لهذا الحصن على شكل مخطط مرسوم باحترافية انطلاقاً من شموخه وعلو ارتفاعه الذي لا يخول لأحد تسلق جدرانه، إلى حجراته التي تستطيع أن تستوعب كل من المأكّل والمشرب والملبس والأثاث إلى الجيوش المدججة بمختلف الأسلحة، المستعدة لأي خطر يحقّ بهم من كل جهة، استعداد ماديا ونفسيا، إلّا أنَّ حبه للابتكار والاختراع جعله يخصص للمعقل جانبا طبيعيا يتمثّل في غرس مختلف الأشجار المثمرة التي تعود على أصحاب الحصن بالمنفعة فلا يضطرون للخروج للبساتين للحصول على الأكل فيتقطن لهم الأعداء.

ثالثا/ العمارة المدنية:

الاستقرار السياسي له يد في تعمير المدن وتفرغ الحكام لتنظيمها من حيث بناء القصور والملاعب والمكتبات والقناطر... فبعضها كان موجها للخاصة من حكام وحاشية والبعض الآخر موجه لعامة الناس ويخدم الصالح العام من سكان المنطقة ويلبي احتياجاتهم اليومية، سنذكر أهم ما تميزت به العمارة المدنية في العهد بنو زيان من خلال عرض نماذج من الأدب الزياني التي عكست صورة هذا النوع من العمارة فكان أشهرها:

1- القصور:

ولع حكام بنو زيان ببناء القصور الأنيفة، والظاهر أنها نافست قصور بني العباس فجاءت ذات تصميم معماري بديع، لما احتوته من زخارف ابداع فيها الفنان المسلم وبساتين زاهية. يقول أبو حمو موسى الثاني في رثاء والده المولى ابي يعقوب يوسف بعد وفاته عام 763هـ - 1362م ذاكرا منجزاته العمرانية:

يَا مَسْعَدِي أَبْصَرْتُ مَا فَعَلَ النَّوَى	بِكْرِيمِ قَوْمٍ فِي الثَّرَابِ صَرِيحِ
فِي طَيِّ لَحْدٍ بِالْثَرَى فَكَأَنَّـهُ	مَا كَانَ فِي عَزٍّ وَفِي تَرْفِيحِ
وَالْقَصْرُ أَمْسَى مَا جَلَا مِنْ بَعْدِهِ	وَمَنَازِلُ تَرْهَى بِكُلِّ صَنِيعِ
وَمَقَاصِرٌ لَمْ يُبْنَ قَطُّ مِثَالَهَا	مِنْ قَبْلِ لِلْمَأْمُونِ* وَالْمَخْلُوعِ** ⁽²⁵⁾

نافست قصور بني زيان قصور خلفاء الدولة العباسية في المشرق كالخليفة المأمون من حيث الجمال والبهاء وروعة التصميم وما احتوته من مصانع.

*- هو الخليفة السابع من خلفاء بني العباس واسمه عبد الله المأمون بن هارون الرشيد وهو أعظمهم، اعتلى العرش في بغداد عام 198هـ (814م) وتوفي عام 218هـ (833م)، ابن خلدون، د.ت، ص. 230.

** - المخلوع هو الخليفة العباسي جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر بالله بوبع مكانه عبد الله بن المعتز لكن هذا الأخير قتل يوم المبايعة فعاد المقتدر بالله إلى العرش؛ ابن خلدون، د.ت، ص. 230.

ومن أشهر هذه القصور نذكر:

أ- قصر المشور:

هو عبارة عن قلعة جميلة محكمة البناء تحتوي على جميع التجهيزات الضرورية للعيش، واليوم هي معلم تاريخي تركه الأجداد من بني عبد الواد. رغم طمس بعض آثاره من طرف الاستعمار. وإذا عدنا إلى معنى المشور فيعني المكان الذي يعقد فيه أمير المسلمين السلطان اجتماعاته مع وزرائه وكتابه وضباطه لمناقشة شؤون الدولة، والتشاور في أمور الرعية وقت السلم ووقت الحرب⁽²⁶⁾.

أما عن سبب بنائه فيعود إلى أن السلطان يغمراسن في بداية حكمه كان يقيم في القصر القديم^(*) بتلمسان العليا (تاكراوت) إلى غاية بنائه لصومعة المسجد الجامع، فصارت المئذنة تطل على القصر، وتشرف على صحنه، عندئذ اضطر السلطان أن يغير مقر اقامته، حتى لا يترك مجالاً للمؤذن وغيره، من الاطلاع على مما يدور بداخل القصر السلطاني، ولا يعرض حريمه لنظرات المتطفلين، فقرر تشيد قصر جديد، يليق بمقام الملوك، ويتطابق وتقاليد السلاطين المسلمين في ذلك الوقت، فاختار مكاناً بجنوب المدينة وبنى فيه قصره، وسماه المشور تمييزاً له عن القصر القديم⁽²⁷⁾.

نلتمس من هنا أن بنو زيان كانوا متمسكين بتعاليم الدين الإسلامي ومن الأشياء اللافتة للانتباه هو أن حكم السلاطين كان قائماً على مبدأ الشورى^(**) وهذا الامر دعا إليه الله عز وجل عباده في كتابه العزيز حيث قال: "وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ"⁽²⁸⁾ فبالشورى يعم العدل بين الناس ولا تهضم الحقوق.

قال الثغري:

وَتَأَنَّ مِنْ بَعْدِ الدُّخُولِ هُنَيْنَةً وَأَعْدَلْ إِلَى قَصْرِ الْإِمَامِ الْأَعْدَلِ⁽²⁹⁾

فسلاطين بني زيان اتصفوا بصفات عدة، ومن بينها سهرهم على تطبيق العدل بين الرعية، ليعم الاستقرار داخل دولتهم انطلاقاً من قصر المشور رغم تعدد القبائل والأجناس. من بربر وعرب.

26- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 115.

*- وهو القصر الموحد القديم المجاور للمسجد الكبير، الذي كان يعرف بدار الإشراق حيث يقيم العامل على تلمسان وكانت للقصر رحبة تعرف برحبة الفصر، أنظر: ابن الزيات النادلي، 1997، ص. 369-448.

27- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 114.

** - تعرف الشورى بأنها طلب الرأي ممن هو أهل له، أو هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلاً وقاعدة من أصول الحكم وقواعده، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يروونه أهلاً للقوة والإمامة لتولي أمرهم، أنظر: عبد الحميد الأنصاري، 1998، ص. 4.

28- سورة الشورى (الآية 38).

29- ابن خلدون، د.ت، ص. 16.

ويبدو أن صرح المشور شيد، في المكان الذي نصب فيه يوسف بن تاشفين المرابطي خيمته حينما حاصر مدينة "أكادير"، وقام بتخطيط القصر على شكل قلعة كما سلفنا مستطيل الشكل، طول ضلعه 490م، وعرضه 280م، وبالتالي تكون مسحته الاجمالية نحو 137200 متر مربع.⁽³⁰⁾

ولم يبق القصر على حاله بل أضاف له السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ / 1307-1318م) في سنة 717هـ-1317م، معلمين معماريين آخرين هما قصر ومسجد خاص، بالأمرأ ورجال الدولة والأعيان، يؤدون فيه صلاة الجمعة والصلوات الخمسة⁽³¹⁾.

وقد كان يحيط بالمشور سور عالي، يضم قصورا عديدة صغيرة إلى جانب قصر السلطان، مبنية بأسلوب معماري فني بديع ومزينة بزخرفة رفيعة، ويحتوي القصر على سقايات ونافورات وبساتين، له بابان أحدهما يقع في الجنوب ويطل على البادية تجاه الجبل والثاني يقع في الشمال الغربي باتجاه وسط المدينة ويقع بجواره رئيس الحرس وله ساحات وشوارع ودروب ومنازل أخرى بداخله للهاشية والكتاب والضباط والخدم، وكان بالمشور مجموعة من المخازن والمطامير لخزن الحبوب والمؤن المختلفة⁽³²⁾.

والظاهر أن القصر السلطاني، يتميز عن غيره من القصور والدور بشكله وسعته ومحتواه حيث كان مزين بالرخام والفسيفساء الملونة، التي تكسو قاعته وجدرانه، مبلط بالجبس الأبيض، والسقوف الخشبية المدهونة، والثريات النحاسية الفخمة، التي تحمل قناديل الزيت والشموع، وكانت أرض القصر السلطاني في معظمها مبلطة بالزليج الملون، وتتخلل القصر أحواض من الزهور والأشجار المثمرة، ونافورات المياه كما هو الشأن في القصور السلطانية بفاس وغرناطة وتونس، فهو معلم من معالم العمرانية الزيانية الرائعة، المتأثرة مما شك فيه بالهندسة المعمارية الأندلسية⁽³³⁾.

يقول صاحب البغية: "وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشائقة، والبساتين الرائقة، مما زخرت عروشه، ونوسبت أطواله وعروضه، فأزرى بالخورنق وأخجل الرصافة وعبث بالسدير"⁽³⁴⁾.

برع ابن خلدون في وصف هذه القصور عن طريق ذكره لمميزاتها من شساعة مساحاتها، وروعة اتقان ما احتوته من المصانع وزخارفها التي مازالت متشبثة في بعض جدرانها وخاصة قصر المشور على سبيل المثال الكتابات الجدارية... وغيرها من الزخارف.

وقد استطاع أبو حمو موسى بعد وفاة عبد العزيز المريني من استرداد ملكه والبقاء على عرش أسلافه لحذاقته ونبوغه في السياسة، وبعد رجوعه إلى تلمسان فإنه رمم ما خربه بنو زيان من سور المدينة

30- ينظر: عبد العزيز فيلالي، 2002، ص.115.

31- نفسه.

32- نفسه.

33- نفسه.

34- ابن خلدون، د.ت، ص. 10.

ومشورها وما كان يحتوي عليه من دور ومتنزهات لطالما تأسف عليها حين مغادرتها، وقد عبر عن ذلك في أبيات من نظمه نحتها على أحد جدرانه فقال: (الوافر)

بَنَاهَا جَدْنَا أَبُو الْمَعَالِي وَكُنَّا نَحْنُ بَعْضُ الْوَارِثِينَ
لَقَدْ سَكَنَاهَا أَيَّامًا طَوَّالًا وَلَيَالِي آمِنِينَ
فَلَمَّا أَنْ جَلَانَا الدَّهْرُ عَنْهَا تَرَكْنَاهَا لِقَوْمٍ آخَرِينَ⁽³⁵⁾

عاش أهل تلمسان في أمن وسلام في مدينة محصنة البناء مشيدة بإتقان، رغم الحصار الذي تعرضت له من طرف جارتها المرينية إلا أنها بقيت صامدة عدة شهور.

ب- دار الملك، ودار السرور، وأبو فهر: وقد قام ببناء هذه القصور الثلاث أبو تاشفين⁽³⁶⁾، تحدث عبد الرحمان بن خلدون عن جمالها فقال:

"وكانت قصور الملك بتلمسان لا يعبر عن حسنها، اختطها أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين واستدعيا الصناع والعملة من الأندلس، فبعث إليهما أبو الوليد بن الأحمر بمهارة البنائين استجادوا لهما القصور والمنازل والبساتين، مما أعيا عن الناس بعدهم أن يأتوا بمثله... فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ونفتت بها أسواق العلوم والصنائع، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلفية"⁽³⁷⁾، فقد عجز لسان عبد الرحمان بن خلدون عن وصف هذه القصور مكتفيا بهذه العبارة نتيجة لدهشته أثناء رؤيته لها، أمّا كلمة (حسن/ الهاء تعود على القصور) تعبير واضح على الجمال المؤدي إلى الانبهار، ودليل على أنه لم ير مثلاً في حياته.

أما أخوه يحيى فقد تحدث عن هذه القصور بإطناب فقال: "ولع ببناء الدور وتججير القصور، وتشيد المصانع واغتراس المتنزهات مستظهرة على ذلك بالآلف عديدة من فعلة أسرى الروم بين نجارين وزلاجين وزواقيين وغير ذلك مع صدقه رحمه الله بالاختراع وبصرة بالتشكيل والابداع، فخلد آثاراً لم تكن قبله لملك ولا عرف لها بمشارك الأرض ومغاربها نظير كدار الملك ودار السرور وابي فهر وسواها"⁽³⁸⁾.

بلطت هذه القصور بالزليج وشيدت أبوابها بالألواح فاستعانوا في ذلك بالنجارين، وأبدعوا في زخرفتها بأشكال مختلفة فاستعانوا بالزواقيين.

2- القصبة:

35- أبي الوليد اسماعيل بن الأحمر، د.ت، ص. 56.

36- ينظر: عبد الحميد حاجيات، 2013، ص. 61.

37- ابن خلدون، 2000م، ص. 297.

38- ابن خلدون، د.ت، ص. 134.

اشتملت تلمسان على قصبة بناها السلطان أبو حمو موسى الأول، من أجل اسكان رهائنه، وذلك لأنه كان يشترط من القبائل الخاضعة لسلطته أن تقدم له رهائن من أبناء أسيادها وبناتهم، فلما كثر عدد هم اضطر إلى اسكانهم في القصبة التي بناها، وفي مكان يصعب تحديده ولعله كان يقع غربي المشوار، في اتجاه حي المطمر⁽³⁹⁾.

يقول الباحث عبد العزيز فيلالي: "فقد كان يبالغ في أخذ الرهائن، من القبائل التي تنضوي تحت نفوذه، حتى يضمن طاعتهم وولاءهم وتتكون هذه الرهائن في الغالب من أبناء القبائل، ومن إخوانهم، يرسلونهم للإقامة بمدينة تلمسان وتحت رعاية السلطان، فبنى لهم أبو حمو موسى قصبة يسكنونها، وسمح لهم ببناء المنازل والدور والتوسع في العمران، وأذن لهم بالزواج وبناء المساجد"⁽⁴⁰⁾.

فمن خلال هذا القول يتراء لنا أن القصبة التي بناها أبو حمو كانت عبارة عن جزء مهم من مدينة تلمسان مجهزة بمرافق ضرورية للعيش.

أما عبد الرحمان ابن خلدون فقد جاء وصفه لهذه القصبة بقوله: "وهي الغور الفسيحة الخطّة، تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن، وكان يبالغ في ذلك، حتى كان يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط، وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة، فملأ تلك القصبة بأبنائهم وإخوانهم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء، واختط لهم المساجد، فجمعوا بها لصلاة الجمعة، ونفقت بها الأسواق والصنائع، وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن سجن"⁽⁴¹⁾.

تميّزت هذه القصبة بالعظمة وحسن التخطيط، فكانت في شكلها مدينة وسط مدينة تلمسان بأسواقها ومساجدها.

3- المكتبات العامة:

المكتبة في عهد بني زيان كانت بمثابة الشجرة المثمرة، ثمارها مختلف العلوم، مكانها المدارس وبيت الله كونهما مقصد جميع الناس وعامتهم. ومن أمثلة ذلك الجامع الكبير بتلمسان الذي احتوى على مكتبتان عامتان حافظتان بالكتب النفيسة، التي اعتبرت مصدرا ينهل منه طلاب العلم في أوقات فراغهم.

أ- المكتبة التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني: (عام 760هـ/1359م)

39- ينظر: عبد الحميد حاجيات، 1394هـ/2013م، ص. 59.

40- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 117.

41- ابن خلدون، 1421هـ./2000م، ص. 215؛ ينظر: عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 114-115.

كانت هذه المكتبة على يمين محراب الجامع الكبير بالمكان الذي لا تزال به الخشبة ذات الكتابة المحفورة التي كانت مثبتة فوق بابها والنص المكتوب عليها هو: "أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السلطان أبو حمو بن الأمراء الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه بما وصل ونوى وجعله من أهل التقوى وكان الفراغ من عملها يوم الخميس ثالث عشر ذي القعدة عام سبعمائة وستين 760هـ" (42).

ب- المكتبة التي أنشأها السلطان أبو زيان محمد الثاني (عام 796هـ/1394م) كانت هذه المكتبة بالقسم الأمامي من الجامع الكبير ثم نقلت إلى المدرسة الدولية عام 1323هـ/1905م، ولا تزال منها بقية إلى يومنا هذا بمكتبة ثانوية الحكيم بن زرجب، وكانت بها عدة مخطوطات منها مخطوطان نفيسان أولهما: "كتاب الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان" للحافظ التنسي، وثانيهما "كتاب عجائب الأسفار" للحافظ الشيخ أبي رأس الناصري (43).

وقد وصف الثغري المكتبة الأولى قائلا:

لَنْ كَانَ بَحْرًا فِي الْعُلُومِ فَإِنَّهُ فِيهِ	بَنان يديه أُنْحُرًا عَشْرًا
لَهُ بِكِتَابِ اللَّهِ أَعْنَى عَنَائَةٍ	وَبالنِسْبَةِ الْغَرَاءِ هُوَ الْمُغْرَمُ الْمُغْرَا
فَمَا هُمُ إِلَّا كِتَابٌ وَسُنَّةٌ	بِنَسْخِهِمَا قَدْ أَحْرَزَ الْفَخْرَ وَالْأَجْرَا
فَنَسَخَ كِتَابَ اللَّهِ جَلْ جَلَالُهُ	وَنَسَخَ الْبُخَارَى ضَامِنًا لَهُمُ النَّصْرَا (44)

أشاد الشاعر في رأيته هذه بأبو حمو موسى الثاني من حيث غزارة علمه، واتساع فكره فحبه للعلم والعلماء جعله يفكر في وضع هذه المكتبة، فقد لعبت دورا مهما في حياة بني زيان فكانت مصدرا ينهلون منه العلم بتشعب مجالاته ثم ذكر أهم محتوياتها التي تمثلت في مصاحف لحفظ القرآن (نسخ كتاب الله جل جلاله)، إضافة إلى ذلك كتب السنة مثل صحيح البخاري (نسخ البخاري) وكتب دينية أخرى

4- المتنزهات:

شملت مدينة تلمسان على مناطق للتنزه والترفيه عن النفس، وخاصة التي تواجدت خارج أسوارها، وهي عبارة عن أماكن يقصدها سكان المدينة، للنزهة والراحة والاستجمام والتمتع بمناظر الطبيعة الخلابة وبهوائها المنعش، بعيدا عن ضوضاء المدينة وازدحامها، وتتمثل هذه المتنزهات في الحدائق العامة، وفي المنيات والملاعب، المحيطة بمدينة تلمسان وفي ضواحيها: مثل ساقية الرومي (*)، ومنزه البركة العظيمة، وملعب الخيل (45).

42- ينظر: الحاج بن رمضان شاوش، د.ت، ص. 89.

43- نفسه، ص. 67.

44- بسام كامل عبد الرزاق، 1422هـ. / 2002، ص. 241.

*- وتسمى اليوم بساقية النصراني.

45- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 153.

فمن ساقية الرومي قال ابن خميس:

لِسَاقِيَةِ الرُّومِي عِنْدِي مَزِيَّةٌ وَإِنْ رَغِمَتْ تِلْكَ الرَّوَابِي الرُّوَاشِحُ
بِكَمِّ لِي عَلَيْهَا بَغْدُو وَرُوحَاةٌ تُسَاعِدُنِي فِيهَا الْمُنَا وَالْمَنَائِحُ
فَطَرَفٌ عَلَى تِلْكَ الْبَسَاتِينَ سَارِحُ وَطَرَفٌ عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ جَامِحُ
تُحَارُ بِهَا الْأَذْهَانُ وَهِيَ ثَوَاقِبُ وَتَهْفُؤُا بِهَا الْأَحْلَامُ وَهِيَ رَوَاجِحُ
ظِبَاءٌ مَعَانِيهَا عُوَاطٌ عَوَاطِفُ وَطَيْرٌ مَجَانِيهَا شَوَادٌ صَوَادِحُ⁽⁴⁶⁾

احتلت هذه الساقية مكانة مرموقة في قلب الشاعر لكونها معلم تاريخي يعود للحقبة الرومانية، فتعددت زيارته لها متأمل لما حولها من بساتين ومباني فاقتهما في الجمال، وزاد جمالها وجود حيوانات (ظباء وطيور وشواد). تصدر من أفواهها أصواتا كنغمات تطرب زوارها.

ومن الملاعب التي شيدت في عهد الدولة الزيانية الملعب الكبير الذي كانت تتسابق فيه الخيول، في محافل مشهورة وفي ذلك يقول الشاعر محمد القيسي الثغري:

وَإِذَا الْعَشِيَّةُ شَمْسُهَا مَالَتْ فَمِلْ نَحْوِ الْمَصْلَى مِيلَةَ الْمُتَمَهِّلِ
وَبِمَلْعَبِ الْخَيْلِ الْقَسِيحِ مَجَالُهُ أَجَلَى النَّوَظِرِ فِي عِتَاقِ الْمَخْفِلِ
فَبِحَلْبَةِ الْأَفْرَاسِ كُلِّ عَشِيَّةٍ لَعِبَ بِذَلِكَ الْمَلْعَبِ الْمُسْتَنْهَلِ
فَتَرَى الْمَجْلَى وَالْمَصْلَى خَلْفَهُ وَكِلَاهُمَا فِي حُرِيَّةٍ لَا يَأْتَلِي
هَذَا يَكُرُّ وَذَا يَفِرُّ فَتَنْتَنِّي عَطْفًا عَلَى الثَّانِي عَنَانِ الْأَوَّلِ
فِي كُلِّ طَرَفٍ كُلِّ طَرَفٍ يَسْتَبِي قَيْدَ النَّوَظِرِ فَتَنَّةُ الْمُتَأَمِّلِ⁽⁴⁷⁾

أطلعنا الثغري في مستهل قصيدته على موقع ملعب الخيل الذي يتجلى في غرب مدينة تلمسان، وبالتحديد في اتجاه غروب شمس الأصيل، ذاكرا اسمه الثاني الذي عرف به (المصلى)، فعدد مواصفاته ومكوناته من الداخل فرآه متسع المساحة به مجلس للجمهور حكاما ورعايا، ومن خلاله تتحرر أنظار هؤلاء لحلبته التي تتربع في وسطه، وفيها يتسابق الفرسان متطين جيادهم.

وقد كان بضواحي مدينة تلمسان متنزهات أخرى مخصصة لاستراحة السلاطين والامراء وكبار القوم، مثل القبة التي انشاها القائد هلال بالروص، على ضفة واد الصفصيف شرق المدينة، واستراحة برج الكيس الذي بناه السلطان أبو الحسن المريني بالقرب من الملعب الكائن ما بين تلمسان والمنصورة⁽⁴⁸⁾.
قال الثغري:

قَدْ قَابَلْتُ زُهَرَ النُّجُومِ بَرَّهْرَهَا وَبَرُوجَهَا بِبُرُوجِهَا وَقِبَابِهَا⁽⁴⁹⁾

46- ابن خلدون، د.ت، ص. 11، 12.

47- نفسه، ص. 15.

48- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 154.

49- المقرئ، 1358هـ./ 1939م، ص. 332.

اهتم سلاطين بنو زيان كل الاهتمام براحتهم الجسمانية والنفسية فخصصوا مكانا للنزهة والاستراحة على شكل قباب محكمة البناء ذات تصميم مناسب لتلك المهمة، وكان أغلبها يتواجد بالقرب من الأودية أو محاطة بالبساتين الخضراء كثيرة الماء، قد حفت رائحة أزهارها المكان.

5- القناطر والجسور:

لقد صاحب كثرة العمران في بلاد المغرب الإسلامي واتساع مساحته صعوبة طبيعة المنطقة من كثرة الوديان التي تميزت بشدة تدفق مياهها وغزارتها، وكل ذلك أدى إلى صعوبة تنقل الأهالي بين أرجائها، فكان الحل الأفضل لاختصار طرقها هو بناء جسور وقناطر فوق الأودية، وهذا ما تقطن إليه السلطان أبو الحسن المريني أثناء توليه الحكم فساهم في ربط مدينة تلمسان بالمدن والضواحي المجاورة لها، انطلاقا من أبوابها المختلفة والمتواجدة في جميع الاتجاهات شرقا وغربا شمالا وجنوبا بمجموعة من القناطر والجسور، وقد تحدث عن هذه الانجازات محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني قائلا:

"أخبرني الفقيه الإمام نور الدين أبو الحسن على بن محمد بن فرحون اليعمري بالمدينة (شرفها الله) قال: "...أما القناطر فلا يخفى ما فيها، فقد عمل فيها الأعمال العجيبة، فقنطرة وادي رداد، وقنطرة بني بسيل، وقنطرة الوادي بداخل فاس، وقنطرة الرصيف وقنطرة وادي سطفسيف بتلمسان وقنطرة باب الجياد(*) وسد سيرات وقنطرة ميناء(**): هذه كلها من إنشائه وفي حسناته ولا يحيط الوصف بها ولا يقدر قدر ما أنفق من الأموال الطائلة فيها (فنفعه الله بها)، وهذه الأمور هي التي يشترك في الانتفاع بها القوي والضعيف والبادي والحاضر وهذه الآثار المتعددة لم تعهد لملك قبله في سالف الأزمان"(50).

لم يأت الكاتب بوصف لهذه القناطر، فالظاهر هنا أن عنصر الدهشة قد سيطر على نصه فذهبت مكنوناته اللغوية وقدرته على الوصف التي رأيناها سابقا، فبدأ يعدد أسماءها والدعاء لصاحبها بالخير لإنجاز العظيم الذي حققه لخدمة الصالح العام، وغياب الوصف مرده للأعمال العجيبة لتلك الجسور ومهارة صانعها في اظهار براعته، فلا ينفع الوصف في نقل صورتها لأنه سوف يقف عاجزا أمامها. وكأن الكاتب أراد أن يضيف نوعا من الفضول في القارئ لرؤية هذه التحفة التي لم يسبق لحاكم وأن قام بها رؤية حسية ومشاهدة عينية.

1- المظهر الاجتماعي:

الإنسان اجتماعي بطبعه يميل بفطرته إلى العيش على شكل مجموعات يتأثر بها ويأثر فيها، وهذا الاحتكاك ينتج عنه انسجاما كبيرا بينهم عن طريق قيامهم بأفعال مشتركة وتكون غالبا منتظمة،

*- "السطفسيف" هو الصفصيف، و"باب الجياد" هو جسر "مشكانة" ولا يزال به أطلال تدل على الموقع الحقيقي لهذا الباب ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، 2011، ص. 276.

** - اسم نهريين موجودين بولاية غليزان؛ محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، 2011، ص. 276.

50- ابن مرزوق الخطيب، 1981، ص. 418.

فيتشاركون في الأحزان والأفراح، حتى جاء في أمثال العرب في العصر الجاهلي، "إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم" أي إذا نزلت عند قوم افعل كما يفعلون. وتلك الأفعال المشتركة تسمى مظاهرا اجتماعية تعكس مدى الرقي الذي وصلت إليه حضارة تلك المجموعات.

ولم تختلف مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي عن سابقتها، حيث تمكنت من خلق مظاهر اجتماعية اختلفت من منطقة إلى أخرى ومن مجتمع لآخر، وكلها ساهمت في إحياء روح الحضارة العربية الإسلامية من خلال الحياة الثقافية والدينية، ومن أبرز تلك المجتمعات المجتمع الزياني.

لقد ورث المجتمع الزياني مجموعة من الطقوس والعادات والتقاليد، وقد تعودوا على ممارستها في شكل مجموعات أو أفراد متمسكين بها كتمسك الشجرة بتربتها، فهي أصل هويتهم ومفخر لحضارتهم، وقد وصلت إلى بني زيان عبر الأجيال فاحتضنها ملوكهم بصدر رحب موفرين لها الجو المناسب لإقامة شعائرها عن طريق بناء أضرحة خاصة بالأولياء الصالحين، وهنا دعوة لزيارتها هذا من جهة ومن جهة أخرى تنظيم محكم لاحتفالات عدة داخل البلاط الزياني إما بمناسبة المولد النبوي الشريف أو لحدق أحد أبناء السلطان للقرآن الكريم، فكانت كلها سببا في تماسك المجتمع الزياني رغم تشعب قبائله. سنحاول في هذا المبحث التطرق إلى مجموعة من العادات والتقاليد التي كانت تقام أو تمارس في القرن السابع والثامن للهجرة عن طريق استحضارنا لتراث الأدبي لتلك الفترة محلين نصوصه الشعرية والنثرية.

أولا/ العادات والتقاليد:

حرص بنو زيان على الممارسة المنتظمة لمجموعة من العادات والتقاليد الموروثة أبا عن جد، فكانت بالنسبة لهم الدّم الذي يجري في عروقهم، ذهابها وتلاشيها يعتبر موتا حتميا لهم، رغم تنافي بعضها مع ما جاء به الدين الإسلامي ومن أبرزها:

أ- الاحتفالات:

الغاية من الاحتفالات التي كانت تقام في عهد الدولة الزيانية هو الحفاظ على الهوية إلى جانب ذلك بث روح التعايش وادخال السعادة في نفوس أفراد المجتمع الزياني، بأنواعها الثلاثة الدينية والعسكرية والمدنية.

1- الاحتفالات الدينية:

أ- الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

فقد كان أول من تنبه إلى الاحتفال بالمولد النبوي في بلاد المغرب هم بنو العزفي أصحاب مدينة سبتة في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وأبرزهم محمد بن أحمد الحمي العزفي السبتي الذي دعا للاحتفال به، وألف كتابا لهذا الغرض عنوانه: "الدّر المنظم في مولد النبي المعظم"⁽⁵¹⁾.

أما بخصوص الدولة الزيانية فقد عرفت الاحتفال بهذه المناسبة في وقت متأخر عن جيرانها وذلك وفق ما تشير إليه معظم المصادر التي تجمع على أنه تاريخ شيوخ الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في تلمسان، بدأ مع تولي أبي حمو موسى الثاني مقاليد الحكم سنة 760هـ/1359م،⁽⁵²⁾ وهذا الأخير كان الحاضن الأول -من ملوك بني زيان- لهذا الاحتفال فهياً له الجو المناسب في مشوره دار ملكه. تحدث عن ليلة المولد النبوي ابن خلدون فقال:

"وأظلت ليلة الميلاد النبوي- على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم- فأقام لها بمشوره داره العلية، مدعى كريما وعرسا حافلة، احتشدت لها الأمم، وحشرت بها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق(*) مصفوفة وزرابي مبنوثة(**)"⁽⁵³⁾.

وُصفت ليلة المولد النبوي بالعرس للحشد الكبير الذي لقيته من كل بقاع العالم تعبيرا منهم لنصرة الدين الإسلامي ورفضهم لأي تأثير صليبي خارجي، فكان لهذا الحفل التميز عن باقي الحفلات في كونه أقيم في قصر الملك أبو حمو موسى الثاني داره العلية، وأنه كان موجها لعامة الناس ومنهم الفقراء، ولم يقتصر على أشراف الدولة.

أما التنسي فقد ذكر تفاصيل ما زين به قصر المشور إضافة إلى ما ذكره يحيى بن خلدون من وسائل وزرابي فقال بالتفصيل الممل: "وبسط موشاة بالذهب مغشاة، وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهلاللات، ومباخر منصوبة كالحباب، يخالها المبصر من تبر مذاق، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة، تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر، ويخالط حسن رباها الأرواح ويخامر، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال، وقد علت الجميع أبهة الوفار والإجلال"⁽⁵⁴⁾.

لقد رسم التنسي لوحة فنية رائعة لهذا الاحتفال، فاستخدم الصور البيانية كالتشبيه (شمع كالأسطوانات، موائد كالهلاللات، كأنها أزهار الربيع...)، قاصدا من كلامه اظهار عظمة ذلك اليوم، ومدى اهتمام أهالي تلمسان بالمظهر الخارجي، وبالتأكيد دون نسيانهم للمظهر الداخلي ويكمن في حبهم الكبير لرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق نظمهم لأبيات شعرية تناولت مدحه، وربما كان سبب إظهار أبو حمو موسى لثراء دولته وترفها في هذا الاحتفال- من زرابي فاخرة، وموائد متقنة الصنع، وأطعمة متنوعة بتنوع أشكالها وألوانها- مرده إلى ذلك التنافس الشديد الذي كان قائما بينه وبين جارتيه المرينية والحفصية فكان لدولة الزيانية الصدارة في هذا الاحتفال رغم تأخرها في تنظيمه.

52- نفسه، ص. 276.

*- النمارق: مفردا نمرق أو نمرق: الوسادة الصغيرة، تستعمل للالتكاء عليها. ينظر: ابن خلدون، د.ت، ص. 101.
**- اقتبس ابن خلدون هذه العبارة من القرآن الكريم في قوله تعالى: ((ونمارق مصفوفة وزرابي مبنوثة)) سورة الغاشية، الآيات 15-16.

53- ابن خلدون، د.ت، ص. 101.

54- المقري، 1968م، ص. 513.

ثم أردف التنسي كلامه قائلا: "بعقب ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه السلام، ومكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس، وترتاح إلى سماعه القلوب"⁽⁵⁵⁾.

عجَّ قصر المشور بالشعراء الذين أظهروا براعتهم في قرض الشعر بإلقائهم قصائد مدحوا فيها خير الأنام محمد سميت بالمولديات، خاتمين إياها بالإشادة بملكهم أبو حمو موسى الثاني وما حققه من انجازات وانتصارات.

وقد أوصى أبو حمو موسى الثاني ابنه أبا تاشفين الثاني باتباع آثاره في هذه المناسبة بقوله: "يا بني عليك بإقامة شعائر الله عز وجل وابتهل إليه في مواسم الخير وتوسل واتبع آثارها في القيام بليلة مولد النبي عليه السلام، واستعد لها بما استطيع من الانفاق العام، واجعله سنة مؤكدة في كل عام تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء، فإن ركبت فيك الغريزة الشعرية، وتحليت بالحلية الأدبية زادت جمالا إلى جمالك وكمالا إلى كمالك فانظم المولديات، واجر مع حلبة السابقين في الأدبيات، تحرز بذلك أفضل المزيات"⁽⁵⁶⁾.

أراد أبو حمو موسى من خلال وصيته هذه أن يجعل الاحتفال بالمولد النبوي عادة يرثها ابنه من بعده، وسنة مؤكدة يتبعها، داعيا إياه بأن يحافظ عليها ويسهر على نجاحها بكل ما يملك من مال وجاه وغريزة شعرية فبهذه الأخيرة يكتمل ملكه ويزيده جمالا ورفعة.

فعمل أبو تاشفين بنصائح والده ونسج هذه العادة على نسج أبيه، وزاد عليه احتفال آخر بليلة السابع للمولد، في ذلك يقول التنسي: "ولما كانت ليلة سابع المولد المذكور احتفل لها أعلى الله مقامه بمثل احتفاله ليلة المولد أو أعظم"⁽⁵⁷⁾.

يتضح من هذا القول أن أبو تاشفين كان بارا بأبيه في هذا الجانب فاستجاب لأوامره، مدركا بذلك بأن الدين الإسلامي هو أساس بناء حضارة دولته، وتخليه عنه هو انذار لسقوطها.

وقد كانت ليلة السابع من المولد النبوي كسابقتها في استقطاب عدد كبير من الحضور ومن مختلف الفئات، ومن بينهم فئة الشعراء الذين لم يأتوا إلا وهم حاملين أروع القصائد التي عرفت بالمولديات وما انطوت عليه من مدح النبي ومدح السلطان، فبدون هذه الفئة لا معنى لهذا الاحتفال لما كانوا يضيفونه من جو يعمه الفرح والسعادة نتيجة لشغف الناس بالشعر وحبهم له، ومن هؤلاء الشعراء الثغري الذي لم يتوان في الحضور فكان شاهدا على هذه الليلة، وليس هذا فحسب بل كان من بين المشاركين في صنع الفرحة

55- المقري، 1388هـ / 1968م، ص. 513.

56- أبو حمو موسى الزباني، 1279هـ، ص. 168.

57- التنسي، 2001، ص. 196.

التي تحدثنا عنها سابقا مساهما في نجاحها حيث ألقى قصيدة رائعة خصيصا لتلك المناسبة، وهذه بعض أبياتها: - الطويل -

فَيَا مَلِكًا يَحْمِي الرِّعِيَّةَ رَعِيَّةً وَيَخَيِّبُهُم بِالْبَذْلِ وَالْعِيشَةِ الرِّغْدِ
وَيَكْفُلُهُم بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالنَّادَى وَيَشْمُلُهُم بِالْجُودِ وَالرِّفْقِ وَالرَّفْدِ
لِيَهْنِكَ مَا جَدَدْتَ مِنْ عَهْدٍ مَوْلِدٌ وَسَابِغُهُ أَكْرَمَ بِذَلِكَ مِنْ عَهْدِ
جَمَعْتَ جَمِيعَ الْحُسْنِ فِي لَيْلَتِهِمَا تُذَكِّرُنَا كِلْتَاهُمَا جَنَّةَ الْخُلْدِ
هُوَ الْمَوْلُودُ السَّامِيُّ وَسَابِغُهُ الرِّضَى فَمَا لَهُمَا فِي مَظْهَرِ الْفَخْرِ مِنْ حَدٍّ (58)

أشاد الشاعر في داليتة هذه بفضل السلطان أبو تاشفين في إقامة ليلتي المولد وسابعه، فوصف الأولى بالسمو والثانية بالرضى، فبهما كان بنو زيان يفتخرون ويعتزون عن باقي دول العالم الإسلامي، لما جمعت فيهما من محاسن سواء الجانب المادي من ملابس ومأكّل أو الجانب الفكري والذي تمثل في القاء الشعر.

أ - الاحتفال بحفظ القرآن الكريم وختمه:

كان الخليفة أبو حمو موسى الزياني يقيم حفلا بهيجا لأبنائه كلما حفظوا سورا من القرآن الكريم، أو ختموه تشجيعا لهم بهذا المكسب.

ولم يخلُ هذا الحفل من الشعراء وما جادت به قرائحهم من قصائد شعرية لهذه المناسبة، فكان أبرزهم محمد القيسي الذي هنا أبو حمو موسى بمناسبة حلق الأمير أبي زيان (*) لسورة البقرة فقال (الطويل):

وَإِنَّ أَبَا زِيَانَ زَيْنٌ لِدَاثِيهِ زَكَا مِنْهُ نَجْلٌ حِينَ طَابَ لَهُ نَجْرُ
وَقَدْ حَقَّقَ الْقُرْآنَ حَقَّقَ مُجَوِّدٍ فَأَشْرَقَ مِنْهُ الْقَلْبَ وَأَنْشَرَ الصَّدْرُ
وَهَشَّتْ لَهُ الْجَوَازُ تَخْدُمُ حَقْلَهُ وَقَدْ شَدَّ عَنْ عَقْدِ النِّطَاقِ لَهَا خِصْرُ
وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَافِظُ لِنَالِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَفِظَ الذِّكْرُ
فَيَا مَالِكَ فَاصْتُ أَشْعَةَ نُورِهِ فَأَشْرَقَتْ مِنْهَا لِلْعَلَا أَنْجُمُ زَهْرُ
لِيَهْنُوكَ أَبْنَاءُ بَنِيَّتِ بِهَدْيِهِمْ مِنَ الدِّينِ أَرْكَانَا يَهْدِيهَا الْكَفْرُ
بِهِ تَزْدَهِي الْأَعْلَامُ وَالْبَيْضُ وَالْقَنَا كَمَا أَرْدَهَتْ الْأَقْلَامُ وَاللُّوحُ وَالْحَبْرُ
فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا أَمِيرٌ مُؤَيَّدٌ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا رَضِيْمًا جَدُّ بَرُّ (59)

58- محمد عبد الله التتسي، 2001، ص. 201.

*- هو ثالث أبناء أبو حمو موسى الزياني، وقد حلق سورة البقرة في شهر رجب من عام 776 هـ/1375م. ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، 2011، ص. 306.

59- ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، 2011، ص. 307.

نقل لنا القيسي مشاعر الفرحة والبهجة والسرور التي عمت البلاط الزياني بمناسبة حفظ أبناء السلطان أبو حمو موسى للقرآن الكريم، وليس هذا فحسب بل اتقائهم لأحكام التجويد، ولم يقتصر الاحتفال على الخاصة بل شمل عامة الناس، إلى أن ختم قصيدته بمدح الأمير أبو حمو موسى لحرصه الشديد للحفاظ على الدين الإسلامي انطلاقاً من أبنائه ليشمل رعاياه عن طريق غرس مبادئه في نفوسهم، وهذا ما جعله مفخرة للجميع. وقد تواصلت الأمداح بتواصل إنجازاته في عصره.

2- الاحتفالات العسكرية والمدنية:

أ- العروض العسكرية:

كان أمراء بني زيان يحتفلون باستعراض الجيش في كثير من المناسبات، ويتفقدون عدته وقدرته القتالية بملعب المدينة، ففي سنة 767هـ / 1366م، احتفل أبو حمو موسى الثاني باستعراض ضخم لجيشه حضره سكان مدينة تلمسان، إلى جانب سلطانهم، في حفل بهيج، وقد وصفه يحي بن خلدون وصفا دقيقاً، بقوله:

"صدرت الأوامر العلية للقبيل الأعز وكافة القواد بحشد العساكر، إلى الحضرة الكريمة، لتعرض بين خليفة الله... وفي أوائل شهر شوال من نفس السنة، اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الأفيح، من ظاهر الحضرة".⁽⁶⁰⁾

استطاع سلاطين بنو زيان، وبالأخص أبو حمو موسى الزياني أن يدخلوا البهجة، والسرور في قلوب سكان دولتهم عن طريق إصدارهم لأوامر تتضمن إشعارات بتنظيم استعراضات عسكرية ضخمة تظهر مدى قوة الجيش المرابط حامي الديار الساهر على مقاومة الأعداء، والمميز في هذا الحفل حضور السلطان مع حاشيته وترصده بنفسه لحركات جيشه القتالية المنتظمة بزي خاص، وأسلحة مختلفة: رماح، سيوف...

وقد أراد هذا السلطان أن يوصل هذه العادة لابنه بعد وفاته من خلال وصيته الذي جاء فيها قائلاً: "يا بني وينبغي لك أن تتخذ أياماً في السنة وتلك من السير الحسنة، فتتفقد فيها أحوال جيشك وقوادك وأجبادك، وعددك وأعدادك فتميزهم تميزاً تعرف منه أحوالهم وتختبر قطائعهم، وأموالهم وتضبط عددهم وتعرف عددهم، فتحسن لمن يستحق الاحسان وعلى هذا يكون عملك في سائر أعوامك، ويرجى لك سعود أيامك ودوام سلطانك إن شاء الله"⁽⁶¹⁾.

كان لهذه الاستعراضات العسكرية جانب ترفيهي، وجانب آخر سياسي يعنى بمراقبة الجيش من قادة وجنود، وما يحتاجه من معدات قتالية، والدولة التي يكون لها جيش قوي يقل أعداؤها ويعيش أبنائها في سلام، ورغم ذلك فقد حرص بنو زيان على المداومة لحشد جيوشهم في مكان واحد وبين يدي السلطان

60- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 286.

61- أبو حمو موسى، 1279هـ، ص. 86.

من كل سنة احتفاء منه بقوة جيشه من جهة، وليكون لهذا الأخير معرفة شاملة لأحوال جيشه -باعتباره أحد أركان دولته- المادية والمعنوية، ومطلعا على ما يحتاجه من جهة أخرى.

ب- سباق الخيل:

تعددت وسائل الترفيه والتسلية عبر العالم الإسلامي فكان أبرزها **سباق الخيل** فعني سكان تلمسان في عهد الدولة الزيانية الخاصة منهم والعامة بتربية وترويض عدد كبير من الخيول، وتجهيزها بكل ما يحتاجه الفارس أثناء الاحتفال الذي كان يقام بظاهر المدينة بملعب الخيل، ونجاح هذا الاحتفال وحسن تنظيمه وحب أهالي تلمسان للفرجة والمرح جعلهم يساعوا لحضور مثل هذه المناسبات وبعدد أكبر مما يتصوره العقل لما لها من صلة وطيدة بالجانب الديني فقد حثنا عمر بن الخطاب على تعليم ابنائنا ثلاث رياضات ومنها ركوب الخيل، فجاء في السند أخبرنا أبو حاتم محمد بن يعقوب أنبأ الحسين بن إدريس ثنا سويد بن نصر أنبأ عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد حدثني مكحول الدمشقي: أن عمر بن الخطاب كتب إلى أهل الشام: "أن علموا أبناءكم السباحة والرماية والفروسية"⁽⁶²⁾.

تحدث الثغري عن هذا السباق فقال:

وَحَجَرُ الْقَنَا وَمَجْرَى الْجِيَادِ⁽⁶³⁾

مَقَرُّ الْعَلَا وَمَرْقَى الْأَمَانِي

وقال أيضا:

لَعِبَ بِذَاكَ الْمَلْعَبِ الْمُسْتَسْهِلِ	فَبِحَلْبَةِ الْأَفْرَاسِ كُلِّ عَشِيَّةٍ
وَكِلَاهُمَا فِي جَرِيهِ لَا يَأْتَلِي	فَتَرَى الْمَجْلَى وَالْمَصْلَى خَلْفَهُ
عَطْفًا عَلَى الثَّانِي عِنَانَ الْأَوَّلِ	هَذَا يَكْرُ وَذَا يَفْرُ فَتَنْتَنِّي
قَيْدَ النَّوَظِرِ فِتْنَتُهُ الْمُتَأَمِّلِ	فِي كُلِّ طَرَفٍ كُلِّ طَرَفٍ يَسْتَبِي
أَوْ أَشْهَبَ كَشْهَابٍ رَجْمَ مُرْسِلِ	وَرَدَ كَأَنَّ أَيْمَهُ شَفَقُ الدُّجَا
أَوْ أَشْقَرَ يُزْهِي بِعُورٍ أَشْعَلِ	أَوْ أَحْمَرَ فَإِنِّي الْأَدِيمُ كَعَسَجِدِ
كَالصُّبْحِ بُورِكَ مِنْ أَعْرِ مُحَجَّلِ	أَوْ أَدْهَمَ كَلِيلِ الْأَغْرِرةِ
مَهْمَى تَرْفُ الْعَيْنِ فِيهِ تَسْهَلِ	جَمَعَ الْمَحَاسِنَ فِي بَدِيعِ شَيَاتِهِ
كَالْأَسَدِ تَنْفُضُ انْقَاضَ الْأَجْدَلِ ⁽⁶⁴⁾	عُقْبَانَ حَيْلٍ فَوْقَهَا فُرْسَانُهَا

وقف الثغري في هذه الأبيات واصفا ما كان يجري كل مساء في ملعب الخيل ذاكرة جزئياته، فلاحظ ذلك التنافس بين الخيول للوصول إلى خط النهاية بغية كسب السباق والفوز فيه، فراقب مجرياته من بدايتها إلى نهايتها، معبرا بذلك عن إعجابه بكل لقطة شاهدها في ذلك السباق والتي مازالت متأصلة في

62- أبو يعقوب إسحاق بن أبي إسحاق القراب الحافظ، 1409هـ./ 1989م، ص. 56.

63- المقرئ، 1388هـ./ 1968م، ص. 328.

64- ابن خلدون، د.ت، ص. 15.

ذاكرته، مسيطرة على مشاعره وربما هذا ما يفسر الاقبال الكبير لأهالي تلمسان لمثل هذه السباقات بغية التمتع بمنظر جري الخيول.

ب- التبرك بالمقابر والأضرحة:

في معظم الأحوال كانت تقع المقابر الإسلامية خارج أسوار المدينة، وعندما يتسع عمرانها وينتشر تصبح المقابر داخل أسوارها، وقد عرف أهل تلمسان بحرصهم الشديد على زيارة مقابر وأضرحة الشيوخ المتصوفة كما كانوا يعتقدون بأن بركة الشيخ تحرص مدينتهم وتحميها من الغزاة⁽⁶⁵⁾.

ومن بين الأضرحة المشهورة ضريح أبو مدين شعيب بالعباد.

عنه قال الثغري:

وَلْتَعُدُّ لِلْعِبَادِ مِنْهَا غُذُوَّةً	تُصْبِحُ هُمُومُ النَّفْسِ عَنْكَ بِمَعَزَلٍ
وَضَرِيحُ تَاجِ الْعَارِفِينَ شُعَيْبُهَا	رُزُّهُ هُنَاكَ فَحَبْذَا ذَاكَ الْوَلِي
فَمَزَارُهُ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا مَعًا	تَمْحِي ذُنُوبَكَ أَوْ كُرُوبَكَ تَنْجَلِي ⁽⁶⁶⁾

كان العباد مكانا يلجأ إليه كل مهموم ذاقته به نفسه، إما من أهل تلمسان أو من خارجها متبرك بضريحها أبو مدين شعيب الذي لقبه الثغري بتاج العارفين، وقد أكد أن بزيارته تذهب هموم الإنسان لأنه يعتبر من أولياء الله الصالحين الذين تفقهوا في الدين وكان لهم خبرة في الحياة.

يقول التاليسي:

وَعِبَادُكَ مَا الْقَلْبُ نَاسٍ ذِمَامُهُ	بِهِ رَوْضَةٌ لِلْخَيْرِ قَدْ جُعِلَتْ حَلَاً
بِهَاشِخُنَا الْمَشْهُورُ فِي الْأَرْضِ ذِكْرُهُ	أَبُو مَدِينٍ أَهْلًا بِهِ دَائِمًا أَهْلًا ⁽⁶⁷⁾

كان الناس يحجون إلى ضريح هذا الولي المشهور، وقد اكتسح اسمه العالم باسم أبو مدين لآخذ بركته متغنين بقصائده.

يقول ابن خميس:

عَلَى قَرْيَةِ الْعِبَادِ مِنِّي تَحِيَّةٌ	كَمَا فَاحَ مِنْ مِسْكٍ اللَّطِيْمَةِ(*) فَائِحُ
وَجَادَ الثَّرَى تَاجَ الْمَعَارِفِ دِيْمَةً	تَغُضُّ بِهَا تِلْكَ الرَّبِّي وَالْأَبَاطِحُ
إِلَيْكَ شُعَيْبُ بْنُ الْحَسِينِ	نَوَازِعُ لَكِنَّ الْجُسُومَ نَوَازِحُ ⁽⁶⁸⁾

65- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 17-18.

66- ابن خلدون، د.ت، ص. 14.

67- نفسه، ص. 17-18.

*- وعاء المسك.

68- ابن خلدون، د.ت، ص. 12.

بعث ابن خميس إلى الفقيه الإمام أبو مدين شعيب بن الحسين تحية طيبة كرائحة المسك ، رافعا يده بالدعاء لقبره معبرا بذلك عن حبه لأولي الكرامة والصالحين ، مؤكدا على أن أهل تلمسان يتسابقون لزيارة ضريحه ، ولم يمنعهم شيء إلا الموت.

ثانيا/ اللباس

يعتبر اللباس من الضروريات التي لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها كالمسكن والمأكل ، فهو الذي يعبر عن ثقافة الشعوب كون الإنسان يعيش ضمن مجموعات وكل مجموعة لها عاداتها وتقاليدها الخاصة بها، وقد عرف اللباس تغيرا واضحا من حيث تصاميمه وزخارفه من عصر لآخر ومن منطقة لأخرى، وعندما كان الناس يصنعونه في منازلهم لتلبية طلباتهم الخاصة، أصبحت صناعته فيما بعد حرفة لها مكان خاص بها وصناع يحكيونه بإتقان، متخذين من صناعته حرفة يقتاتون منها فأصبحت منتوجاتهم تباع في الأسواق الداخلية للدولة التي يعيشون فيها أو في الأسواق الخارجية (الدول المجاورة أو الأجنبية)، وهذا بالضبط ما كان شائعا لدى المجتمع الزياني.

يقول يحي ابن خلدون عن أهل تلمسان بأنهم: "ناس أخيار ألو حياء ووقار ووفاء بالعهد ودين واقتصاد في المعاش واللباس والسكن على هدي السلف وحوك الصوف يتفانون في عمل أثواب الرقاق فتلقي الكساء والبرنوس عندهم من ثماني أواقي، والأحرام من خمس بذلك عرفوا في القديم والحادث"(69).

بساطة الحياة عند أهل تلمسان كانت سببا في بساطة اللباس عندهم، فمن مادة الصوف صنعوا أثوابا مختلفة تتماشى وجميع فصول السنة يرتديها كلا الجنسين ومناسبة لكل الأعمار فمثلا البرنوس نجده للكبار وللصغار. وقد خصص ملوك بني زيان لباس خاص بجيوشهم بعد تقسيمهم إلى أربعة أقسام ولكل قسم مهام مكلف بها.

تحدث أبو حمو موسى الزياني عن القسم الرابع من أقسام الجيش وهم ممالك الملك فقال: "يكون لهم ترتيب في اللباس، يمتازون بذلك على سائر الناس يتزينون بالأقنية الحسان المختلفة الالوان وبأيديهم الحراب عليها صفار الرايات من أنواع الحرير مختلفات لأنهم مما يزدون في بهاء الملك وجماله وضخامته وكماله، وهم مما يتزين بهم الملوك والأمراء والاشراف والكبراء..." (70).

اللباس الذي يرتديه هؤلاء والرايات التي يحملونها في أيديهم، والمصنوعة من مادة الحرير كلها بدافع إظهار مكانة الأشخاص الذين هم بصدد مرافقتهم، وكأنهم الحلي التي تزين الملوك أينما حلوا وارتحلوا. وقد قال أبو حمو موسى في إحدى قصائده:

69 نفسه، ص. 32.

70- أبو حمو موسى الزياني، 1279هـ، ص. 81.

وَنَحْنُ ذُو التَّيْجَانِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ لَعْمَرِكَ مَا التَّيْجَانِ غَيْرَ الْعَمَائِمِ⁽⁷¹⁾

ذكر الشاعر نسبه إلى آل البيت (بنو هاشم) أي رهط النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذين عرفوا بارتدائهم للعمامة التي يقابلها عند غيرهم من غير العرب بالتاج، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث له: "العمائم تيجان العرب"⁽⁷²⁾، وقد احتفظ بنو زيان -كونهم مزيجا من البربر والعرب - بتقاليدهم فكان ملوكهم يضعونها لرمزيتها فهي تعبر عن السلطة والسيادة والمكانة العالية للشخص الذي يرتديها، فتميزت بفخامة الثوب الذي تصنع منه، إلى جانب ذلك اختلافها من حيث الشكل عن باقي العمائم التي يضعها الرعية، فكانت كالتاج المرصع باللآلئ.

ثالثا/ الأكل:

يعتبر الأكل أيضا من ضروريات حياة الإنسان إلى جانب اللباس، فأبدع هذا الأخير في صناعة أطعمة لذيذة وبمكونات بسيطة، ومن المأكولات التي كانت تحضر في عهد الدولة الزيانية نذكر:

1- المشهدة: سرد لنا يحي ابن خلدون في البغية قصة أبطالها سيدي الحلوي والإمام أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهان الأوسي المعروف بابن المرأة، فجاء نصها كالآتي:

"أتيت من مرسية زائرا عمه لي بتلمسان فما سرني شيء كوجودها حية وتطوأت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ يبيع طبق عود في يده حلواء للصبيان الصغار فتفرست فيه مخائل القوم فاتبعته فاذا من يمر به من الصبيان ينفرون له فيدور فيشطح وربما أنشد مقطعات منققات الألفاظ في مغنى المحبة فلم أشك أنه من الصالحين ثم أخذ في ثمن شيء من حلوائه كسرة خبز سميد فتصدق بها على يتيم ذي اطمار بعد علمه بحاجته فقلت في نفسي هذا ولي مورعن مقامه يبيع الحلواء وكان ذلك برمضان، فلما جاء الفطر ابتعت سميدا وعسلا وقلت لعمتي إصنعي لي مشهدة يفطرها عندي رجل من الصالحين ففعلت، والتمسته في الناس بعد صلاة العيد فلم أجده فحوقلت وقلت في نفسي اللهم بحقه فاجمع بيني وبينه في هذه الساعة فإذا هو عن يميني فانضم إلي وقال صنعت عمتك المشهدة فقلت نعم فقال قم بنا إلى ناحية نأكل هذه المشهدة الحاضرة وحينئذ نمشي إلى دار عمتك فقمتم معه إلى خارج المصلى فأخرج من تحته صحيفة مغطاة بمنديل نظيف وكشطه فإذا هو فيه مشهدة لم ير مثلا أحكام طبخ وجودة صنعة وكثرة آدام فأكلنا وتوجهنا إلى دار عمتي فأحضرت عمتي مشهدتها فلم تشبه الأولى بشيء فأكلنا منها شيئا"⁽⁷³⁾.

فالحلوى التي تناولها الإمام أبو اسحاق مع الشيخ سيدي الحلوي هي من الحلويات التي كان يصنعها سكان تلمسان بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك، وقد تقنن الأهالي في صنعها رغم بساطة مكوناتها (السميد والعسل)، وهذا ما أدهش الامام أبو اسحاق عند تناوله لمشهدة سيدي الحلوي فاستغرب للجودة

71- ابن خلدون، د.ت، ص. 212.

72- القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، 1405هـ/ 1985م، ص. 75.

73- ابن خلدون، د.ت، ص. 66- 67.

صنعها ورأى فرقا بينها وبين مشهدة عمته، والغريب أنه لم يذكر من صنع المشهدة التي كانت بحوزة الحلوى.

2- طعام الميلاد:

بمناسبة احتفال أهالي تلمسان بمولد خير الأنام وأزكى السلام محمد صلى الله عليه وسلم خصصوا لمولده من كل عام - في عهد أبو حمو موسى الثاني - أشهى الأطباق، ومن هذه الأطباق طعام الميلاد الذي تحدث عنه يحيى بن خلدون قائلا:

"وجيء آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح"⁽⁷⁴⁾

يكشف لنا هذا القول على جانب مهم من المجتمع الزياني المحافظ على عاداته وتقاليده معززا ذلك بفرحته بمولد محمد صلى الله عليه وسلم، عن طريق تحضيره لطبق خاص بهذه المناسبة وهو الخرس. والمتمثل في طبق البسيصة(*) التي كانت تصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء حيث كانت تقدم للنفساء والأشخاص الذين يأتون لتهنئة بالمولود الجديد وذلك حسب بعض المصادر.

1- المظهر الاقتصادي:

لعل نجاعة أي حضارة تكمن في نجاعة اقتصادها واستمرار عجلته في الدوران، وإذا عدنا أدرجنا إلى الوراء وبالضبط إلى زمن حكم بني زيان -متصفحين تاريخ حضارته- لوجدناه حافلا بالنجاح، وما حققته الدولة الزيانية من ازدهار وتقدم في الجانب الاقتصادي كان سببه الرئيسي بناء المصانع والأسواق، وما شهدته من نشاط اقتصادي واسع النطاق من جهة، ومن جهة أخرى وفرة المياه التي كان لها يد في كثرة المحاصيل الزراعية بشتى أنواعها. نذكر منها أصناف الحبوب من قمح وشعير وذرة، والخضر التي تمثلت في الفول الجلبان واللوبياء، أما الأشجار المثمرة فشملت الزيتون، النرجس، الليمون، التين، اللوز، الرمان، الأجاص والكرز أو ما يعرف بحب الملوك قال لسان الدين بن الخطيب: "ألا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك"⁽⁷⁵⁾.

أولا/ الأسواق:

تعتبر الأسواق من المرافق الضرورية والحيوية التي تتم فيها جميع التعاملات التجارية عن طريق تبادل السلع بين التجار إما داخل الدولة أو خارجها، يرتاد إليه الناس من مختلف الفئات والأعمار، ولم تخل الدولة الزيانية من هذا المرفق الحيوي فكان أشهرها:

1- القيصرية:

74- نفسه، ص. 123.

*- تسمى كذلك تقننة، أنظر: الحاج محمد بن رمضان، 1995، ص. 375.

75- الحاج محمد بن رمضان شاوش، د.ت، ص. 38.

وهي عبارة عن سوق واسعة الأطراف⁽⁷⁶⁾ تتكون من مجموعة من البنايات بها دكاكين ومحلات تجارية، وورشات صناعية مخازن وفي بعض الأحيان مساكن فوق الحوانيت وبها فنادق يقصدها التجار الأجانب⁽⁷⁷⁾.

وقد اعتبرت القيصرية^(*) من أهم أسواق الدولة الزيانية لاحتوائها على السلع الآتية من أوروبا إلى موانئ الدولة الزيانية كوهرة والمرسى الكبير وهنين ومزگران وتنس، تنقل منها إلى تلمسان حيث يزداد الإقبال عليها من قبل أهلها لارتفاع مستوى سكان تلمسان العاصمة، وعلى الخصوص في العصر الذهبي، فيروى عن أبي حمو موسى أنه قال في شأن تهافت الناس على البضائع الأوروبية: "بأنها تغيّر من طبائع الناس وتدفع الأغنياء نحو الرشوة"⁽⁷⁸⁾.

عن هذا السوق قال ابن خميس:

تَرْكُكُ سُوقِ الْبَزِ (**) لَا عَنْ تَهَاوُنٍ وَكَيْفٍ؟ وَظَنِّي سَائِحُ فَيْكٍ غَيْرِ سَارِحٍ⁽⁷⁹⁾

فحنين ابن خميس إلى سوق البزّ دال على محبته لهذا المكان، فربما ترك فيه أصدقاء له كان يحدثهم كلما سمحت له فرصة التجول بين أزقته لاقتناء ثياب له.

ثانيا/ دار الصناعة:

حققت الدولة الزيانية اكتفاء ذاتيا من حيث الصناعة الحربية فكانت منتوجاتهم محلية الصنع تتميز بالجودة العالية والاحكام في الصنع، والفضل في ذلك يرجع إلى العناية التي خصصها السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني لهذا الجانب خاصة فئة الصناع فجاء مشروعه تشييد دار للصناعة سنة 766هـ/1365م، ذات الفائدة الحربية وهي دار استقطب لها الصناع على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وديانتهم وصناعاتهم فكان العمل فيها نشيطا، قائما على قدم وساق، ونظرا لأهمية هذا المصنع وإنتاجه الحربي الاستراتيجي الهام فقد كان أبو حمو الثاني ينفق صناعته مرتين في كل يوم⁽⁸⁰⁾.

وقد وصف يحيى ابن خلدون هذه الدار فقال:

"إنّ دار الصناعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم، وتباين لغاتهم وأديانهم فمن دراق ورماح ودراع، ولجام ووشاء، وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك فتصطك لأصواتهم وألاتهم الأسماع، وتجار في أحكام صنائعهم الأذهان وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار، ثم تعرض

76- محمد الطمار، ص. 130.

77- ينظر: عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 135.

*- القيصرية: تعني سوق السلطان أو القيصر؛ ينظر: عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 157.

78- ينظر: مختار حساني، 2009، ص. 50-51.

** - وهو سوق كانت تباع فيه الثياب.

79- المقري، 1968، ص. 133.

80- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 221.

قومتهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة (أي السلطان) أيده الله... وينصف العاملين من أرزاقهم عدلا هكذا أبدا⁽⁸¹⁾.

يقال الحاجة وليدة الاختراع، فلولا حاجة بنو زيان لدروع والرماح والسروج... وهلم جر من اللوازم الحربية لما لجأوا إلى بناء مكان جامع لأنواع مختلفة من الصناعات، والسعادة التي تحدث عنها يحي بن خلدون تكمن فيما رآه من تعاون وانسجام بين عمالها (دار الصناعة)، رغم اختلافهم في مشاربهم ولغاتهم فهدفهم الأسمى واحد، وهو اتقان الصناعة لتعلن في الأخير على شكل منتوجات قابلة للعرض في الأسواق، أو لتزويد الجيش الزياني بما يحتاجه من عُدّة تحسبا لأي طارئ قد يحدث في الأيام المقبلة، ولأهمية هذا المشروع سهر أبو حمو موسى على نجاحه ببث النشاط فيه عن طريق تسديده لأجورهم عمالها بالتساوي دون تمييز أو تماطل منه.

ولعل حب هذا السلطان للصناعة الحربية جعله يخصص وقتا معينا لزيارة دار الصناعة، متخذها ذرعا لصدود دولته أمام اعدائه وإخافتهم، فكلما كانت هناك عُدّة حربية قوية كلما قلت أطماع الأعداء للسيطرة عليها وفي هذا قال:

"يا بني وينبغي لك أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس، ولا تمضي فيه حكما تنفرد فيه بالنظر في مجابيك وأموالك، وتتفقد أموالك في ديار الصناعات من الأشغال والحاجات مثل النظر في العدد الحربية التي تظهر بها القوة بالكلية"⁽⁸²⁾.

وقد انتهج السلطان أبو حمو موسى الزياني في تعامله مع طبقة التجار، والصناعات والحرف - باعتبارهم قوة اقتصادية وجزء مهم ساهم في تقدم الحضارة الزيانية - سياسة خاصة به، وقد فصل الحديث فيها على شكل وصية لابنه أبو تاشفين فقال:

"والوجوه والفضلاء الضابطين لجموعهم، الرابطين تابيعهم بمتبوعهم، مثل أهل التجارات وأهل الحرف والصناعات، فتنزل كل جماعة منزلتها، وترتبها في طبقتها، ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم وأيديك منبسطة إليهم، فربما تدعوك الضرورة إلى الانتقاع بهم في الشدايد، فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، ولذلك لحسن مدافعتك عنهم، وتوثقك بالإحسان منهم، ولتكن معاملتك لهم بما يليق من اكرامهم، وحفظهم واحترامهم"⁽⁸³⁾.

ثالثا/ ثروة المياه:

الماء هو أساس حياة الكائنات، والإنسان يحتاج إليه باستمرار إما لشرب أو الاستحمام أو للسقي، قال الله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ"⁽⁸⁴⁾، ولتقريبه من مكان اقامته فكر في بناء

81- نفسه.

82- أبو حمو موسى الزياني، 1279هـ، ص. 86.

83- أبو حمو موسى الزياني، 1279هـ، ص. 87.

84- سورة الأنبياء (الآية: 30).

شبكة لتوزيعه بانتظام، وهذا ما وجد داخل المدن الزينانية، وساعد تزويد أهل تلمسان بالمياه انحدار الأنهار من أعالي الجبال، وكثرة ينابيع والعيون التي تقع خارج أسوار المدينة⁽⁸⁵⁾، وصف يحيى ابن خلدون مائها فقال:

"عذبة الماء كريمة المنبت"⁽⁸⁶⁾.

المقصود من هذا القول أنّ تلمسان تميزت بوجود مساحات خضراء تخللتها أشجار الفواكه ومختلف المحاصيل الزراعية التي كانت تعود على الدولة الزينانية بالدخل الوفير، وذلك كله يعود بالدرجة الأولى إلى كثرة المياه وعذوبتها، وإلى تربتها الخصبة بالدرجة الثانية. مما يجعلها أكثر عطاء من حيث الإنتاج ولذة من حيث طعم المنتج.

وقد أشار إلى ذلك الشاعر التلالي في أبيات له فقال:

سَقَى اللهُ مِنْ صَوْبِ الْحَيَا هَاطِلًا وَبَلًا (*) رُبُوعٌ تَلْمَسَانَ الَّتِي قَدَّرَهَا اسْتَعْلَى
رُبُوعٌ بِهَا الشَّبَابُ مُصَاحِبِي جَرَرْتُ إِلَى اللَّذَاتِ فِي دَارِهَا الذِّيلَ
كَمْ نَلْتُ فِيهَا مِنْ أَمَانٍ قَصِيَّةٍ وَكَمْ مَنَحَ الدَّهْرُ الضَّيْنُ* بِهَا النِّيْلَ
إلى أن قال:

لَهَا بِهَجَةٍ تُزْرِي عَلَى كُلِّ بَلَدَةٍ بَتَاجٍ عَلاهَا كَالْعُرُوسِ إِذَا تَجَلَّى
فَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي رَاقَ حُسْنُهَا فَحَازَتْ عَلَى كُلِّ الْبِلَادِ بِهِ الْفُضْلَى⁽⁸⁷⁾

جعل الله سبحانه وتعالى ربوع تلمسان تنعم بالاخضرار، فسقى تربتها بالمطر الشديد الذي ينزل بغزارة فامتألت الوديان، وتفجرت العيون فأصبحت جنة دنيوية لحسنها وجمالها فاحتلت بذلك مرتبة عالية بين حواضر المغرب العربي خاصة والعالم عامة.

وقد أفرد الشاعر محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني بيتين من الشعر تحدث فيهما عن تلمسان فقال:
(الكامل)

بَلَدُ الْجَدَاوِلِ مَا أَمَرَ نَوَاهَا كَلَفَ الْفُؤَادُ بِحُبِّهَا وَهَوَاهَا
يَا عَاذِلِي كُنْ عَاذِرِي فِي حُبِّهَا يَكْفِيكَ مِنْهَا مَاؤُهَا وَهَوَاهَا⁽⁸⁸⁾

إنّ كثرت مياه تلمسان تجلت في اختلاف منابعها ومجاريها، وهذا ما حرك مشاعر شعراء الدولة الزينانية، فسارعوا في وصفها بأوصاف يرق لها القلب وتدمع لها العين شوقاً لرؤيتها كلما طال بعد

85- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 149.

86- ابن خلدون، د.ت، ص. 9.

*- المطر الشديد.

*- المنيف.

87- ابن خلدون، د.ت، ص. 17-18.

88- محمد رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، 2011، ص. 278.

أجسادهم عنها رغم تعلق قلوبهم بها متمنين العودة لأحضانها ولمس مياها ونهلهم منها لتذوق عذوبتها ورؤية صفائها، فالماء هو الحياة، حياة الإنسان وحياة قلب الإنسان العاشق لخبره وهو ينساب في الجداول، منظرًا لطالما تغنى به الشعراء وافتخروا به كون بلدهم من يحتويه، ولا مانع لهم لتقرب منه والانتفاع به إلاّ الفراق والبعد، وافتخروا به كونه كان مصدرا لحياة حضارتهم وبقائها.

قال محمد بن يوسف القيسي الثغري في قصيدة له بعنوان كل حسن على تلمسان وقف: (الخفيف)

وَأَنْبَرَى كُلَّ جَدُولٍ كَحُسَامٍ عَارِي الْعِمْدِ سُندُسِي النَّجَادِي
وظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سطرت بغير مداد⁽⁸⁹⁾

عبر الثغري عن صفاء مياه تلمسان بصورة جميلة أثناء مروره من بين الجداول كالسيف الاعم حين اخراجه من غمده، وانعكاس صورة أغصان الأشجار التي في جوانبه كأنها أحرف كتبت على صفحة بيضاء وبدون حبر.

وفي قصيدة أخرى قال:

تُسَلِّيكَ دَوَحَاتِهَا(*) وَتِلَاعِهَا نَعْمَ الْبَلَابِلِ وَاطْرَادِ الْجَدُولِ⁽⁹⁰⁾

صاحب جريان الماء في وعائه (الجدول) نغمات كان يصدرها طائر البلبل يلاحق مسيرته باتجاه الاشجار العظيمة لسقيها بدون توقف، يواصل سيره غير أنه بطول الطريق.

وكانت شبكة المياه هذه محكمة القنوات داخل المدينة وخارجها تبني من الطوب، مغطاة تحت الأرض ولا سيما الجزء الذي يكون خارج المدينة، وهو الأنبوب الرئيسي الذي يصب في الأحواض، التي تستعمل في سقي البساتين وفي الصهاريج التي تزود سكان المدينة، عن طريق قنوات تصل الدور والمنازل والقصور، والحمامات والفنادق والمساجد والمدارس والزوايا والساحات العامة والأسواق⁽⁹¹⁾.

قال صاحب البغية: "وتنصب إليها من عل جبلها أنهار من ماء غير ماسن، تتخذ به أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها ثم ترساه بالمساجد والمدارس والسقايات والقصور وعليه الدور والحمامات فيفعم الصهاريج ويفهق الماضي ويسقي بساتينها خارجها ومغارس الشجر ومنابت الحب فهي التي سحرت الألباب"⁽⁹²⁾.

الصهريج الذي يتحدث عنه يحي ابن خلدون هو الصهريج الكبير، ويسمى أيضا بالحوض العظيم "grand bassin" الذي يرجع حفره إلى عهد أبي تاشفين، وتبلغ مسافته (مائتا متر) طولاً ومائة متر عرضاً، وثلاثة أمتار عمقاً، والظاهر أنه كان معداً للفرجة وكذلك للري البساتين الواقعة شمال المدينة، وكان الماء

89- ابن خلدون، د.ت، ص. 561.

*- الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة من شجر ماء والجمع: دَوْحٌ.

90- ابن خلدون، د.ت، ص. 88.

91- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 149.

92 - ابن خلدون، د.ت، ص. 10.

يأتيه من المرتفعات التي تطلّ على تلمسان من الجنوب،⁽⁹³⁾ ويذكر أنّه كان يستعمل للسباق بين الزوارق والقوارب في أيام الأعياد والاحتفالات الملكية وللسقي في الأيام العادية⁽⁹⁴⁾.

فقد كان هذا الصرح يؤدي مهمتين في آن واحد، الترفيه عن النفس من جهة، وسقي البساتين من جهة أخرى. وقد وجدت عدة سقايات في أزقة المدينة وفي دروبها، وعيون خارج أسوارها. وهذا ما لاحظته حسن الوزان أثناء رحلته بين أرجاء تلمسان واصفا ما شاهده قائلا: "في المدينة عدة سقايات، ولكن العيون توجد خارج المدينة، بحيث إن العدو يمكنه أن يقطع الماء عنها بدون صعوبة"⁽⁹⁵⁾. ومن أشهر عيونها نذكر:

عين ونزونة: التي تقع خارج باب الجياد من الجهة الجنوبية.

عين الكسور: بالمنية خارج باب القرمادين، في الجهة الشمالية الغربية لمدينة تلمسان⁽⁹⁶⁾.

عين أم يحيى: كان ماء هذه العين يجري بالقصر الملكي القديم بتلمسان⁽⁹⁷⁾.

قال عنها التاليسي:

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَتْنَا بِصَفْصِيفِهَا الَّذِي تَسَامَى عَلَى الْأَنْهَارِ إِذَا عَدَمَ الْمَثَلَا
وَمِنْهُ وَمَنْ عَيْنِ أُمِّ يَحْيَى شَرِبْنَا لِأَنَّهُمَا فِي الطَّيْبِ كَالنَّيْلِ بَلْ أَحْلَى⁽⁹⁸⁾

شبه الشاعر مياه هذه العين -أم يحيى- بمياه نهر النيل الموجود في بلاد مصر مهذّ الحضارة الفرعونية في العذوبة بل فاقتته في الحلاوة، وكأنّه نهل من هذا النهر فلولا ذلك لما جاء بهذه المقارنة. وكانت مدينة تلمسان تزود من عين أخرى تعرف بـ "الفوارة" عبر قنوات تحت الأرض تبعد عن المدينة بنحو ثلاثين فرسخا⁽⁹⁹⁾.

قال القيسي:

وَأَقْصُدْ بِيَوْمِ ثَالِثِ فَوَارَةٍ وَبِعَذْبِ مَنْ هَلَّهَا الْمُبَارَكُ
تَجْرِي فِي دُرِّ لُجَيْنٍ سَائِلٌ أَحْلَى وَأَعَذْبُ مِنْ رَحِيقِ سَلْسَلِ
وَأَشْرَقَ عَلَى الشَّرَفِ الَّذِي بِإِرَائِهَا لَتَرَى تِلْمَسَانَ الْعَلِيَّةَ مِنْ كُلِّ⁽¹⁰⁰⁾

93- أبو حمو موسى الزيانى، 1279هـ. ص. 62.

94- محمد الطمار، 1984، ص. 129.

95- حسن الوزان، 1983، ص. 20.

96- عبد العزيز فيلاي، 2002، ص. 150.

97- ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، 1422هـ/2011م، ص. 293.

98- ابن خلدون، د.ت، ص. 17.

99- عبد العزيز فيلاي، 2002، ص. 151.

100- الحاج محمد بن رمضان شاوش، د.ت، ص. 31؛ ابن خلدون، د.ت، ص. 15.

كان أهالي تلمسان يقصدون هذه العين (فؤارة) للارتواء من مائها العذب المبارك الصافي كالفضة عند جريانه بين السواقي ،ومن خلالها ترى تلمسان كالعروس في أبهى حلة.

رابعاً/ الإنتاج الزراعي:

اتّسم اقتصاد المغرب العربي الاسلامي بالاكتماء الذاتي وخاصة في مجال الانتاج الزراعي ،فكان للخضر والفواكه حضورها المكثف داخل الأسواق، ومصدرها أراضي الدولة الزيانية لثروة الماء وخصوبة التربة والاستغلال الجيد لتلك الثروة من طرف الأهالي ومسؤولي الدولة، والمهمة الأكبر كانت على عاتق المحتسب الذي كان يقوم بضبط الأسعار في الأسواق ومراقبتها، وقد أشار يحي بن خلدون إلى بعض المنتجات الزراعية التي كانت تثمرها أرض تلمسان فقال:

"ويوجد بخارجها...الحدائق الغالب بما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين من فواكه الرمان والزيتون والتين...، وتنصب إليها من أعلى جبالها أنهار من ماء غير آسن، ويسقي بساتينها خارجها ومغارس الشجر، ومنابت الحب"⁽¹⁰¹⁾.

يؤكد الكاتب أنّ أهالي تلمسان استغلّوا الأراضي المحيطة بأسوار مدينتهم لزراعة كل ما لذّ وطاب، غير متكّلين على المدن المجاورة في هذا الجانب، كون تلك المنتجات كانت تعود على خزينة الدولة بالدخل الوفير في أيام السلم، أمّا أيام الحصار فيرتفع سعرها لتواجد أغلب بساتينهم خارج المدينة فيصعب الذهاب إليها والعمل بها.

1- المظهر السياسي:

تميّزت الحياة السياسية في عهد الدولة الزيانية بحسن التنظيم والتسيير، والسيطرة على الأوضاع الداخلية والخارجية - رغم تعرضها لمضايقات من طرف جارتها المرينية والحفصية بين الحين والآخر وتعرضها للحصار لعدة شهور- انطلاقاً من الحاكم باعتباره العقل المفكر والأمر والنهي وصولاً إلى الرعاية باعتبارهم المنفذين لتلك الأوامر، والنتيجة التي حققتها الدولة الزيانية نجاعة سياستها أحسن مما حقّقه الدول المجاورة، وقد ظهر ذلك جلياً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، والمصدر المؤكد لما ذكرناه وصية السلطان أبو حمو موسى الزياني لابنه أبو تاشفين فقد تضمنت بين طياتها مجموعة من الخطط سهر طول فترة حكمه على تطبيقها بغية تنظيمه لدولته، متمنيا لابنه أن يسير على خطاه بعد وفاته.

أولاً/ نظام الحكم:

كان نظام الحكم في عهد الدولة الزيانية ملكي وراثي تعاقبت عليه عدة ملوك كل واحد منهم ترك بصمته في مختلف المجالات، وأشهر هؤلاء الملوك أبو حمو موسى الزياني تحدث عنه التلليسي مادحا إيّاه:

101- ابن خلدون، د.ت، ص. 11.

وَلَا عَجَبَ إِنْ كُنْتَ فِي الْحُسْنِ هَاكَذَا
مُطَاعُ الشَّجَاعِ فِي الْوَعَادِ وَمَهَابَةٌ
كَرِيمٌ حَلِيمٌ حَاتِمِي نَوَالُهُ
هُوَ الْمَلِكُ الْأَرْقَى هُوَ الْمَلِكُ الرِّضَى
وَمِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ فِيهِ تَجَمَّعَتْ
وَمُوسَى الْأَمَامُ الْمُرْتَضَى فِيكَ قَدْ حَلَى
حُسَامٌ عَلَى الْبَاغِيْنَ فِي الْأَرْضِ قَدْ سَلَ
سَعِيدٌ حَمِيدٌ يَصْدُقُ الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
هُوَ الْمَلِكُ الْأَسْنَى هُوَ الْمَلِكُ الْأَعْلَى
حَقِيقًا عَلَى كُلِّ الْمَعَالِي قَدْ اسْتَوَلَى⁽¹⁰²⁾

حملت شخصية أبو حمو موسى عدة صفات جعلته الحاكم الزياني الوحيد الذي سما في ملكه، فمن الشجاعة والصرامة في اتخاذ القرارات إلى الجود والحلم مع رعيته إلى الصدق في القول والفعل، فبهذه الأوصاف نافس ملوك المغرب الإسلامي برمتهم، فكان الملك المطاع الساهر على خدمة دولته، والحريص على بقائها زهره فواحة في بستان أخضر تحيط به الأشواك من كل جانب.

ثانيا/ خطط الدولة:

ككل دولة إسلامية وضع حكام بنو زيان لدولتهم خططا لتنظيم شؤونها، كالنظر في المظالم لفك النزاعات، ونظام الحسبة لقمع الغش، ونظام الشرطة لسهل على توفير الهدوء والأمن والاستقرار لرعاياها، وحتى لا يطغى على المجتمع الظلم والفساد ومختلف الآفات الاجتماعية التي قد تؤدي بالدولة إلى الهاوية.

أ- خطة المظالم:

يعتبر النظر في المظالم هيئة قضائية عالية تشبه محكمة الاستئناف في أيامنا ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم أعلى بكثير من سلطة القاضي⁽¹⁰³⁾، عرفها ابن خلدون في المقدمة فقال: "هي وظيفة ممزوجة من سطوة سلطانية ونصفه القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين، وإليها النظر في البيئات والتقارير، واعتماد الإمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصم على الصلح، واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي".⁽¹⁰⁴⁾

أما بالنسبة لشروط من تُوجَّب عليه تولي النظر في المظالم فقد ذكرها الماوردي في قوله: "...أن يكون جليل القدر، ناقد الأمر عظيم الهيبة ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماية وثبت القضاء، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين"⁽¹⁰⁵⁾.

وفيما يتعلق بتاريخ ظهور هذه الخطة يكمن في أنه لم يكن في زمن الخلفاء الراشدين مجلس لها لأنهم كانوا حديثي الإسلام، ووازعهم الديني لم يخول لهم ذلك فكان سلطانا يسيطر على نفوسهم، ولكن الخليفة

102- ابن خلدون، د.ت، ص. 18.

103- بشير رمضان التليسي، وجمال هشام النويب، 2004، ص. 131.

104- ابن خلدون، 2007، ص. 222.

105- الماوردي، 1409-1989م، ص. 102.

الوحيد الذي اضطر للنظر في المظالم هو علي بن أبي طالب، ولكنه لم يعين لذلك يوماً معيناً ولا زمناً محدداً، بل كان ينظر في شكاية من يأتيه من المتظلمين، ويعمل على إنصافه⁽¹⁰⁶⁾.

ومع تغير أحوال المجتمع الإسلامي تغيرت طباع الناس على ما كانت عليه في صدر الإسلام، واتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية في عهد بني أمية زاد من كثرة المظالم والاستهتار بحقوق الناس، فتراكمت الشكايات مما دفع خلفاء تلك الفترة بتخصيص يوم معين للنظر في مظالم الرعايا، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يستعين بقاضيه إدريس الأزدي فيما أشكل عليه، فكان ابن إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الأمر، وقد أفرد يوماً يتصفح قصص المتظلمين⁽¹⁰⁷⁾.

وبعد إهمال بعض خلفاء بني أمية لهذه القاعدة أعاد خلفاء الدولة العباسية لها الحياة، وكان المهدي أول من جلس للمظالم، ثم اتبعه من جاء بعده من الخلفاء، وكانوا كثيراً ما يستندون هذا المنصب إلى أحد وزرائهم أو قضائهم، كما فعل المأمون بقاضيه يحيى بن أكنم، والمعتصم بقاضيه أحمد بن أبي داود⁽¹⁰⁸⁾. ومن النصوص النثرية التي تؤكد بوجود هذه الخطة وصية أبو حمو موسى الزباني لابنه أبو تاشفين يأمره بتطبيقها قائلاً:

"وبعد فراغك من الصلاة (صلاة الجمعة) تجلس بمجلسك للشكايات تأخذ في القضاء الحاجات والفصل بين الخصماء، والانتقام من الظلمة الغثاء فتقمع الظالم وتفهر وتحمي المظلوم وتنصره وتحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لإزالة ما يقع في الأحكام من الالتماس، وهذا المجلس في اليوم المذكور مخصص للرعية والجمهور فيه تتعد الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام والمحتاجين، وأن تنظر في أهل سجوناتك"⁽¹⁰⁹⁾.

عكف أبو حمو موسى الثاني على قمع الظالم ونصرة المظلوم، فخصص يوماً في الأسبوع عقب صلاة الجمعة، وحضر في مجلسه الفقهاء لاستشارتهم في المسائل الشرعية بغية إصدار أحكام عادلة بين الرعية.

ب- خطة الشرطة:

- لغة: عَرَفَهَا صاحب لسان العرب بأنها من أَشْرَطَ فلان نفسه لكذا وكذا، أعلمها له وأعدّها، ومنه سُمِّيَ الشَّرْطُ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها الواحد شُرْطِيّ. قال ابن الأحمر:

فأشْرَطَ نفسه حرصاً عليها وكان بنفسه حجتاً ضنياً.

106- بشير رمضان التليسي، وجمال هشام النويب، 2004، ص. 132.

107- نفسه، ص. 133.

108- نفسه.

109- أبو حمو موسى الزباني، 1279هـ. ص. 84-85.

والشُرطَةُ في السلطان من العلامة والإعداد، ورجل شُرطِيٍّ وشُرطِيٍّ منسوب إلى الشُرطَةِ والجمع شُرَطٌ، سمو بذلك لأنهم أعدوا لذلك وأعلموا أنفسهم بعلامات⁽¹¹⁰⁾.

يقول صاحب القاموس (هم أول كتيبة تشهد الحرب، وتنتهيًا للموت، وطائفة من أعوان الولاية مفرد شُرطِيٍّ)⁽¹¹¹⁾.

أما في الاصطلاح يوجد مفهومين هما:

المفهوم الأول: "الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة والوالي في استتباب الأمن، وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين، وما إلى ذلك من الأعمال التي تكفل أمن الجمهور وطمأنينته".⁽¹¹²⁾

المفهوم الثالث: "هي الهيئة النظامية المكلفة بحفظ الأمن والنظام، وتنفيذ أوامر الدولة وأنظمتها"⁽¹¹³⁾. هناك علاقة وطيدة بين المفهومين فكلاهما يؤكّدان أن دور رجال الشرطة - باعتبارهم هيئة نظامية - السهر على توفير جو خالي من الفوضى وألا أمن انطلاقاً من تنفيذهم لمجموعة من الأوامر الصادرة عن السلطة العليا.

تحدّث أبو حمو موسى الزباني عن هذه الخطة في وصيته قائلاً:

"ثم دخل صاحب شرطتك وحكام بلد حضرتك ليخبرك بما يريد في ليلتك لا يخفي عليك شيء من أحوال رعيّتك وبلدك مع ضبط مملكتك فتسأله عن القليل والكثير والجليل من الأمر والحقير لئلا يتوصل أهل العناية للرعية مضرة ولا أذية ولا يقع من حكام جور في بلد ولا ظلم لأحد فإنه إذا علم الحاكم أو غيره من أهل العناية وأهل الدعاوي والجنايات بأن الملك لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده فيمتنع كل منهم من استتالة يده فيقف الناس عند حدودهم".⁽¹¹⁴⁾

لردع أهل الجرائم والتقليل من عمليات الإجرام داخل المجتمع الزباني، كان جهاز الشرطة أفضل وسيلة اتخذها السلطان أبو حمو موسى فسهر على تطبيقها بواسطة صاحب شرطته الذي كان يطلعه بكل صغيرة أو كبيرة عن رعاياه، ممّا جعل مهمته أصعب هو نقل الحقيقة وعدم السكوت عنها، فهو بمثابة العين التي يبصر بها الحاكم.

5- المظهر العلمي:

سارع ملوك بني زيان منذ وضع اللبنة الأولى لدولتهم في استقطاب العديد من العلماء لحاضرتهم تلمسان والوافدين من بلاد المشرق والأندلس، إضافة إلى ذلك إعدادهم لجيل محب للعلم والعلماء، فاتّخذوا كلّ الإجراءات المناسبة لتوفير الجو المناسب من بناء المدارس، وفتح المكتبات سواء في المساجد أو غيرها

110- ابن منظور، د.ت، ص. 742.

111- الفيروز آبادي، 1429هـ. / 2008م، ص. 853.

112- حسن إبراهيم حسن، 1416هـ. / 1996م، ص. 376.

113- ينظر: نمر بن محمد الحميداني، 1994، ص. 19، يحيى المعلمي، 1402 هـ، ص. 3.

114- أبو حمو موسى الزباني، 1279هـ، ص. 84.

من المرافق، متيقنين من ضرورة تشجيع البحث العلمي ماديا وومعنويا، فانعكس ذلك ايجابا على الدولة الزيانية فشهدت نهوضا كبيرا لم تشهده بلدان المغرب الإسلامي من قبل، فجاء وصف بعض الباحثين لهذه النهضة بنعوت شتى منها "النشاط العلمي" و"الحركة الفكرية" وغيرها من الأوصاف العامة التي تبين الكمية والفعالية⁽¹¹⁵⁾، فجاء شعارهم على أساس قول الله جلّ جلاله:

"قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ".⁽¹¹⁶⁾
أولا/ إكرام أهل العلم:

حظيت تلمسان بعلماء من خيرة أبنائها أو من خارج أسوارها حملوا لواء حضارتها فاحتلوا مرتبة عليا داخل المجتمع التلمساني، فامتلت المدارس والمساجد بأمثالهم بعدما امتدت جلساتهم في بلاط ملوك بني زيان الذين لم يتهاونوا في استقبالهم بحفاوة، وقلب رحب فأكرمهم وأمدوا لهم يد العون للمزيد من البذل والعطاء خدمة للعلم والعلماء فأسسوا دورا للعلم تحملوا أسمائهم مثل مدرسة لبنا الامام إضافة إلى ذلك فقد اقاموا جلسات خاصة بهم، للمناظرة وتبادل الأفكار، وخير دليل على ما كان يجري داخل البلاط الزياني قول التنسي عن أبي تاشفين وكيفية تعامله مع العلماء:

"فقد كان له بالعلم وأهله احتفال وكانوا منه بمحل تهمة واهتبال، وفد عليه بتلمسان الفقيه العالم المتفنن ابو موسى عمران المشدالي^(*)، أعرف أهل عصره بمذهب مالك فأكرم نزله وأدام المبرة به والحفاية بجانبه وولاء التدريس بمدرسته الجديدة، ولما ورد الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن عمران البجائي على تلمسان تاجرا دخل المدرسة القديمة، فحضر مجلس أبي زيد بن الامام، فألقاهم يتكلمون في قول ابن الحاجب في الأصول في حد العلم إنه صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض فنأدى:

"يا سيدي هذا الحدّ غير مانع إذ ينقض بالفضل والخاصة، فقال له الشيخ أبو زيد: "من هذا الذي انبأ مقاله عن مقامه؟ فقال: "محبكم أحمد بن عمران".

فقال: "أول ما تشغل بضيافتك وحينئذ يقع الجواب".

فانزل منزل الكرامة، فأخبره عن مقدمه فأخبره أنه جاء تاجرا فعرف به أبو زيد أمير المسلمين أبا تاشفين، فرفع عنه كلفة مغرمة ومغرم من جاء معه، وكان مائتي دينار، وأعطاه زيادة على ذلك مائتي دينار ذهبية، وجاء به أبو زيد إلى أخيه أبي موسى مسلما عليه فقال له:

- "سمعنا أنك أوردت على أخينا سؤالا فأورده علينا".

فلما قرره بين يديه قال له:

115- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 317.

116- سورة الزمر، (الآية: 9).

*- الفقيه الحافظ أبو موسى عمران المشدالي من كبار الفقهاء وخيار العلماء والصلحاء من زواوة بجاية، لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك، وحفظا لأقوال أصحابه وعرفانا بنوازل الاحكام وصوابا بالفتيا، توفي في حدود خمس وأربعين وسبعمائة ينظر: ابن خلدون، د.ت، ص. 72.

- "يا فقيه غنما قال ابن الحاجب: صفة توجب تمييزا والخاصة إنما توجب تمييزا لا تمييزا"⁽¹¹⁷⁾.
جاء هذا القول ليوضح لنا طبيعة العلاقة التي كانت تربط خلفاء الدولة الزيانية بفئة العلماء من مشاعر الحب والرعاية في مقابلها عطاء وانتاج وإبداع، كل ذلك نتج عنه إشعاع حضاري من تلمسان ليعلو جميع حواضر المغرب الإسلامي (فاس والقيروان) ويمتد إلى حواضر المشرق (بغداد).
وفي هذا السياق قال ابن خلدون متحدثا عن تلمسان وعلمائها:

"فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الاعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية والله وارث الأرض ومن عليها"⁽¹¹⁸⁾.

تعظيم ابن خلدون لتلمسان على جميع بلدان المغرب يدل على أنه شاهد فيها أمورا لم يعهدها في سابقاتها من الدول التي زارها، وأبرز ما لفت أنظاره اهتمام الخاصة والعامة بالعلم وأهله مخصصين لهم مدارس تحمل أسمائهم ومكتبات تحتوي على كتبهم، ومجالس للمناظرات والمحاورات داخل البلاط الزياني، وإقامة أعياد دينية فيها يفتح الملك المنافسة بين الأدباء لإظهار قدرتهم في قرض الشعر. وكل ذلك جعل الوافدين إليها يستقرون بين أحضانها إلى أن توفيهم المنية فيدفنون في ترابها ويسقى قبرهم من مائها فيعتبرون من خيرة ابنائها الذين لم تتجهم تلمسان ورغم ذلك فقد أحبوا وتشبثوا بها ومدحوها في إنتاجاتهم الأدبية عرفانا لما قدمته لهم من خير سبق ذكره.

ومن جهة أخرى أكد التنسي حرص حكام بنو زيان على استدعاء العلماء بطلب منهم إلى حاضرتهم تلمسان متحدثا عن يغمراسن (633-681هـ) قائلا: "إنه كان له في أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا يستقدمهم إلى بلده، ويقابلهم بما هم أهله"⁽¹¹⁹⁾.

بعد أن أشاد التنسي بشخصية يغمراسن فصل في الحديث عن ميزة أبهرته وعكست صورة المؤلف عن الملوك السابقين في كونه لم ينتظر وفود أهل العلم على دولته التي أسسها بل بادر بنفسه في استدعاء أشهرهم وأعرفهم بأمور العلم حبا منه للعلم وأهله وتشوقه لرؤية دولته تشع فيها أنوار الحضارة من كل جهة.

وممن استقدمهم يغمراسن إلى حاضرتهم تلمسان قال التنسي أيضا: "ومن أعلم من كان في زمانه أبو اسحاق إبراهيم بن خلف بن عبد السلام التنسي، كانت الفتاوى تأتيه من إفريقية وتلمسان إلى تنس، فكان أمير المسلمين يغمراسن يكاتبه كثيرا، ويرغبه في سكنى تلمسان، ويمتنع إلى أن نشأت فتنة مغراوة، فورد مرة على تلمسان، فكان يجتمع إليه فقهاؤها ويأخذون عنه العلم فبلغ خبره أمير

117- التنسي، 2001، ص. 141-142.

118- ابن خلدون، 2000، ص. 105.

119- التنسي، 2001، ص. 126.

المسلمين، فركب بنفسه وجاء إليه، واجتمع معه بالجامع الأعظم، ومعه فقهاء تلمسان وقال له: "ماجئتك إلا راغبا منك أن تنتقل إلى بلدنا تنشر فيها العلم وعليها جميع ما تحتاج".
... فقال لهم: إن رجعت تسببت في انتقالي" فقال له أمير المسلمين: "نحن لا ندعك ترجع ولكن نرسل إلى أهلك من ينقلهم إلينا"⁽¹²⁰⁾.

حب يغمراسن للعلماء ترجمه لنا التنسي حينما سرد لنا طريقة ذهاب هذا الحاكم إلى فقيه معروف في المغرب العربي، حين سماعه بقدومه عند فقهاء تلمسان ذكرا لنا أسلوبه الرائع في اقناعه بالبقاء في حاضرتة، وتقديم له ما يحتاجه حتى ولو استلزم الأمر احضار عائلته بالكامل، وحتى لا يضطر هذا الفقيه للعودة إلى بلده بحجة رؤية أهله، وهنا تظهر حنكة يغمراسن في التعامل مع الأمور بكل سلاسة وعقلانية. واضعا كل التسهيلات التي بدورها تمثل تحفيزا لأمثال هؤلاء العلماء للسير إلى الأمام والغوص في بحر العلم والبحث في مكنوناته.

ثانيا/ الاختراعات والابتكارات العلمية:

العلم يفتح أبوابا عدة منها باب الابتكار والاختراع والتطوير لتلبية حاجيات الانسان في حياته اليومية ومن أهم ما أجاد به العقل الزباني نذكر:

أ- خزانة المنجانة:

ذكر بعض المؤرخين بما في ذلك يحي بن خلدون بوجود ساعة ذاتية التشغيل استخدمت فيها تقنيات متقدمة جدا، صممت هذه الماكينة في عهد السلطان أبو عنان (حكم 1348-1358م)، واستخدمت فيما بعد من طرف السلطان أبو حمو الثاني (1359-1387م) لإحياء المولد النبوي عام 1359م في قصر السلطان بمشور تلمسان،⁽¹²¹⁾ وقد صنعها أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام⁽¹²²⁾.

وصفها يحي بن خلدون في البغية فقال: "وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة، قائمة المصنع، تجاهه بعلاها أيكة تحمل طائرا، فرخاه، تحت جناحيه، ويخاتله فيهما أرقم(*) خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا وبصدرها أبواب موجفة(**)، عدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب(***) كطرفيها بابان موجفان، أطول من الأولى وأعرض، فوق جميعها - ودوين راس الخزانة - قمر أكمل، يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت - أول كل ساعة - بابها المرتج، فينقض - من البابين الكبيرين -

120- نفسه، ص. 126-127.

121- علي محمد رضا، د.ت، ص. 32.

122- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 282.

*- الأرقم: أخبث الحيات، والأرقم الحية المرقطة بالسواد والبياض.

** - أوجف الباب: أغلقه، أوجف الشيء: حركه صيره يضطرب.

*** - يصاقب هنا: يقارب.

عقابان(****) في كل واحد منهما صنجة صفر(****)، يلقيها إلى طست من الصفر مجوف، بواسطة ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة، فيرن، وينهش الأرقم أحد الفرخين، فيصفر له أبوه، فهناك يفتح باب الساعة الراهنة، وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راء، بيمنها أذبارة(*) فيها اسم ساعتها منظوما، ويسراها موضوعة على فيها، كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله، حيل أحكت يد الهندسة وضعها..."(123).

نستشف من خلال هذا الوصف أنّ الدولة الزيانية عرفت تقدما كبيرا في مجال الصناعات الميكانيكية، وما أنتجه العقل التلمساني من اختراعات عظيمة دليل واضح على دور العلماء، وسهرهم على خدمة البشرية بتلبية احتياجاتهم اليومية.

ب- الشجرة العجيبة:

فقد كان أبو تاشفين شديد الاهتمام بجمال قصوره، فحلى أحدها بشجرة من الفضة وصفها التنسي في نظم الدر والعقيان فقال:

"وكانت عنده شجرة من فضة، على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، وأعلاها صقر، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة، وبلغ الريح مواضع الطيور صوتت بمنطقها المعلوم لمشابهها، فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها".(124)

العجيب في هذه الشجرة ليس في كونها مصنوعة من فضة بل لأنّ بها مجسمات لطيور تصدر من افواها أصواتا مشابهة تماما لأصواتها الحقيقية بمجرد النفخ في قاع الشجرة، وهنا تكمن دقة صنعها، وهذا بالذات يثبت لنا مدى التقدم العلمي الذي وصلت إليه الحضارة الزيانية، وبالأخص أثناء فترة حكم أبا تاشقين، ويقال أنّه كان يأخذها معه لملعب الخبل لحضور الاستعراضات العسكرية التي كان يشرف على اقامتها متباهيا بهندستها وجمالها أمام الحضور.

ويعتبر عهد أبي تاشفين الأول عصر ازدهار العمران بتلمسان وبلوغه أوج عظمته ورونقه، وكان هذا الأمير يميل إلى اللهو واللذات، واغتنام نعيم الدنيا ومسراتها، وكان يمتاز عن أسلافه بذوق فني وتفهم لجمال الأشكال والصور(125).

****- العقاب: طائر من قفصيلة الجوارح، له مخالب قوية ومنقار أعقف، يشبه النسر.

****- تسمى الصنج جمعها صنوج: وهي صفيحة مدورة من النحاس الأصفر، أما الصفر: فالمقصود به هنا هو النحاس الأصفر.

*- يقصد بكلمة أذبارة هنا: لوحة أو قطعة ما بها كتابة.

123- ابن خلدون، د.ت، ص. 103-104.

124- التنسي، 2001، ص. 141.

125- عبد الحميد حاجيات، 2013، ص. 60.

ولتأكيد هذه الفكرة نستحضر قول يحيى بن خلدون وهو يتحدث عن أبي تاشفين ودوره في الابداع العلمي:

"مع صدقه بالاختراع، وبصره بالتشكيل والابتداع فخلد آثارا لم تكن قبله لملك ولا عرف لها بمشارك الأرض ومغاربها نظير".⁽¹²⁶⁾

6- المظهر الطبيعي:

نعني بالمظهر الطبيعي تلك الطبيعة العذراء التي لم تصنعها يد الإنسان، مشكلة بذلك مجموعة من المتنزهات، أو كانت مصدرا لسقي المحاصيل الزراعية أو للشرب، والطبيعة هي الحاضنة الوحيدة للعمران والاقتصاد والمجتمع، فلا حضارة بلا طبيعة فهي الجاذبة لسُباح من كل حذب وصوب قاصدين إياها بغية التمتع بمناظرها الساحرة من جبال وشلالات، وحتى عليل هوائها ومنذ أقدم الأزمنة والإنسان يحاول الحفاظ على طبيعة دولته لأنها جزء لا يتجزأ من حضارة ذلك الشعب فعلى سبيل المثال الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ من المدينة المنورة، لما تحتويه من واحات ومساحات خضراء ذات مناظر خلابة مركزا لحضارته، فكذلك الحضارة الزيانية كان لها ذلك المكسب ونقصد به المظهر الطبيعي والمتمثل في جبل لالا ستي، وشلالات الوريط، وكهف الضحاك، وواد الصفصيف، التي أبدعت فيها يد الخالق سبحانه وتعالى، فكانت المتنفس الوحيد لقاصدي حاضرة العلم والعلماء تلمسان وخاصة فئة الأدباء معبرين في انتاجاتهم الأدبية عن اشتياقهم الكبير لزيارتها بكل حرقة وحزن ورهف شديد للعودة إليها، معززين بذلك شموخ حضارتها بتلك الأماكن، فجاء وصفهم صادق الإحساس نابع من الوجدان، غير قادرين على كتمان ذلك الجمال.

ولتأكيد ما قلناه نستحضر بعض ما جادت به قرائح شعراء تلك الفترة عن طبيعة حضارة المغرب الإسلامي، وسر جمالها بذكرهم لأسماء أشهر مظاهر طبيعتها.

أولا نسلط الضوء على جنات الوريط وشلالاتها الساحرة⁽¹²⁷⁾، قال الشاعر التلمساني ابن خميس (الطويل):

وَأَنْ أَنْسَى لَا أَنْسَى الْوَرِيطَ وَوَقْفَةَ	أَنْفَخَ فِيهَا رَوْضَةَ وَأَفَاوْحُ
مُطْلًا عَلَى ذَلِكَ الْغَدِيرِ وَقَدْ بَدَتْ	لِإِنْسَانٍ عَيْنِي مِنْ صَفَاءِ صَفَائِحُ
لَنْ كُنْتُ مَلَانًا بِدَمْعِي طَافِحًا	فَعَنِّي سَكْرَانًا بِحُبِّكَ طَافِحُ
قَرَّاحٌ أَتَى يَنْصَبُ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ	بِمِثْلِ حَالِهِ تَسْتَحِثُّ الْقَرَائِحُ
أَرْقُ مِنَ الشَّوْقِ الَّذِي أَنَا كَاتِمُ	وَأُصْفَى مِنَ الدَّمْعِ الَّذِي أَنَا سَافِحُ ⁽¹²⁸⁾

126- ابن خلدون، د.ت، ص. 134.

127- عبد العزيز فيلالي، 2002، ص. 153.

128- محمد مرتاض، 2004، ص. 68.

نلتمس بين ثنايا هذه الأبيات أن **الثغري** تعود على زيارة هذا المكان بغية التمتع بطبيعته الجميلة بداية من انسياب مائه من عل إلى صفائه ورقة جريانه، وكلّ هذه المناظر كانت تلامس أحاسيسه المرفهة فيشكو لها همومه.

أما عن **كديّة العشاق**(*) فقد قال التلايسي:

وَكُدْيَةُ عَشَاقٍ لَهَا الْحُسْنُ يَنْتَهِي يَعُودُ الْمُسْنُ الشَّيْخُ مِنْ حُسْنِهَا طِفْلاً⁽¹²⁹⁾

جعل الشاعر مظهر هذا المكان يسحر ناظري زائريه، فالجمال عنده قد اكتمل، فجاء في عجز البيت بمثال حي ليؤكد صدق ما قاله، وكأنها تجربته الحقيقية التي خاضها بنفسه مع طبيعة هذا المكان، واصفا الشعور الذي انتابه وهو بين أحضانه.

أما محمد القيسي (الكامل) قال:

وَبِرَبْوَةِ الْعُشَاقِ سَلْوَةٌ عَاشِقٍ قَتَلَتْهُ الْحَاظُ الْغَزَالِ الْأَكْحَلِ⁽¹³⁰⁾

وكان عشق الناس لهذا المكان جعلهم يطلقون عليه ذلك الاسم وما احتواه من مظاهر طبيعية خلابة كانت مصدر لتسلية نفوسهم الجياشة بالعواطف والمحبة لكل جميل، وعاشقة له.

وعن **غدير الجوزاء** قال التلايسي:

نِعْمَ غَدِيرُ الْجَوَزَةِ السَّالِبِ الْحَبَا نِعِمْتُ بِهِ طِفْلاً وَهَمَمْتُ بِهِ كَهْلاً⁽¹³¹⁾

جاء التلايسي في مستهل بيته بفعل جامد (نعم) لإنشاء المدح، مادحا بذلك غدير الجوزة، بأنه سالب للعقول، فذكر قصته معه، حيث كان مقصده للعب بمياهه العذبة، وهو صغير، وملجأه الوحيد الذي ييوح له بأحزانه وهمومه، وهو شيخ كبير. فجمعت بينه وبين هذا المكان علاقة حب وهيام طويلة مراحل عمره.

وعن **وادي الصفصيف** قال:

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَتْنَا بِصَفْصِيفِهَا الَّذِي تَسَامَى عَلَى الْأَنْهَارِ إِذْ عَدَمَ الْمَثَلَا⁽¹³²⁾

كان واد الصفصيف عبارة عن نقطة للاستراحة ونسيان عناء السفر، سواء أكان ذلك الشخص قاصدا زيارة تلمسان أو يود مغادرتها.

أما **الثغري** فقد وصفه وصفا دقيقا فقال:

وَاعْمَدَ إِلَى الصَّفْصِيفِ يَوْمًا ثَانِيًا وَبِهِ تَسْلُ وَعَنهُ دَابَا فَسُئِلَ

*- اسم ربوة من الأرض واقعة جنوب الحرطون بين القلعة العليا والعباد، ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن دحمان، 2001، ص. 293.

129- محمد مرتاض، 2004، ص. 17.

130- نفسه، ص. 14.

131- ابن خلدون، د.ت، ص. 17.

132- نفسه.

وَادِ تَرَاهُ مِنَ الْأَزْهَارِ حَالِيًّا أَحْسَنَ بِهِ عُطْلًا وَغَيْرَ مُعْطَلٍ
يَنْسَابُ كَالْأَيْمِ أَنْسِيَابًا دَائِمًا أَوْ كَالْحُسَامِ جَلَاهُ كَفُ الصَّقِيلِ
فَزُلَّالُهُ فِي فَمٍ قَدْ حَلَا وَجَمَالُهُ فِي كُلِّ عَيْنٍ قَدْ حَلَّى (133)

فدعوة الشاعر واضحة في البيت الأول لكل من أراد أن يتسلى برؤية واد الصفصيف، وهو يتحلى بأنواع الأزهار، فالأحسن له أن يختار هذا المكان لقضاء أيام عطلته فسيُسّر لرؤية مائه، وهو في وعائه يتدفق كانسياب الثعبان في مشيته، ونعومة ملمسه يشبه السيف المصقول، ومذاقه عذب، وصفاءه جمال تعشق العين رؤيته.

إضافة إلى ذلك منزله كهف الضحاك الذي يعد من أعظم الأماكن وأحسن المنزهات، التي يضرب بها المثل، في المناظر الخلابة، حتى قيل فيه شعرا، يقع خارج أسوار المدينة، وكان خاصا بالطبقة الحاكمة وأعيان المدينة وشيوخها (134). وعنه قال الشاعر محمد بن يوسف القيسي الثغري:

وَبِكَهْفِهَا الضَّحَاكِ قِفْ مُتَنَزِّهًا تَسْرَحُ جُفُونُكَ فِي الْجَمَالِ الْأَجْمَلِ
وَتَمْشِي فِي جَنَاتِهَا وَرِيَاضِهَا وَاجْنَحْ إِلَى ذَلِكَ الْجَنَاحِ الْمَخْضَلِ (135).

وقال عنه أيضا:

صَحِكَ النُّورُ فِي رُبَاهَا وَأَرْبَى كَهْفُ ضَحَاكِهَا عَلَى كُلِّ نَادٍ (136)

تضمنت هذه الأبيات أيضا دعوة صريحة من القيسي لزائر تلمسان أن تكون وجهته، ومقصده لمدة طويلة من الزمن لهذا الكهف، الذي أبدع فيه الخالق لدرجه أن عين الإنسان تأخذه بخيالها بعيدا لجمال ما فيه، وبهذا كله فاق على كل المجالس التي كان يقصدها الناس بغية التسلية والترفيه عن النفس.

الخاتمة:

وصفوة القول إن الأدب الزياتي كان له بصمته الخاصة به دونها بحروف من ذهب في تاريخ المغرب الإسلامي من خلال تطرقه لمختلف المظاهر الحضارية، والتي من خلالها أعادنا إلى فترة خلت من حكم الزيانيين لمدينة تلمسان فكانت أهم نتائج بحثنا هذا كالاتي:

1- طبيعة تلمسان الخلابة كان لها دور كبير في تحريك مشاعر الأدباء فسكبوا كل ذلك في نتاجهم الأدبي وكان على رأسهم ابن خميس التلمساني.

133- نفسه، ص. 15.

134- عبد العزيز فيلاي، 2002، ص. 154.

135- ابن خلدون، د.ت، ص. 14.

136- ابن خلدون، د.ت، ص. 562.

2- تأثر الأدب الزياني بنوعيه النثري والشعري بحضارة المغرب الإسلامي، وخاصة الحضارة الزيانية فظهر ذلك التأثير جليا من خلال تناوله لمختلف المظاهر الحضارية (العمران، الاقتصاد، الثقافة، العلم...).

3- كان للوصف النصيب الأوفر في النثر منه في الشعر الذي اقتصر على ذكر السطحيات كإقتصار الشعراء على تعداد أسماء أبواب تلمسان - كونه مظهر عمراني- واصفين ما حولها من مظاهر الطبيعة غاضين النظر عن وصف شكلها ومواد صناعتها والزخارف البادية عليها، ولكنه أثبت وجوده في نص الخطاب النثري لسهولة نظمه واسترسال صاحبه في ذكر جزئيات الموصوف بدون تقيده بوزن وقافية. كوصف يحيى ابن خلدون والتتسي ليلية المولد النبوي - كونه مظهر اجتماعي- وصفا يجعل النفس تلذ لرؤية الموصوف عن كثب.

4- شكلت المظاهر الحضارية كتلة واحدة متلاحمة، فالتبرك بالأضرحة جاء نتيجة لبناء بني زيان لها تميزا لأصحابها عن غيرهم من الموتى، وبشكلها الملفت للأنظار، وهنا اجتماع للمظهر العمراني بالمظهر الاجتماعي.

5- تنوعت المظاهر الحضارية في الإنتاج الأدبي بنوعيه الشعري والنتري، فكان المظهر الطبيعي الأكثر المظاهر جذبا وتحريكا لقرائح الشعراء افتتانا منهم بطبيعة الدولة الزيانية تلمسان، التي تجلت في مياهها الكثيرة ورياضها الخضراء وكهوفها المتعددة.

الببليوغرافيا:

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.
- ابن الزيات النادلي، 1997، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي 617هـ. / 1220م، تحقيق أحمد التوفيق، ط. 2، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، المغرب.
- ابن خلدون عبد الرحمن، 1421هـ. / 2000، تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر.
- ابن خلدون عبد الرحمن، 2007، المقدمة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت- لبنان.
- ابن خلدون عبد الرحمن، د.ت، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج. 1، ج. 2، بيرفونطانا الشرقية، الجزائر.
- ابن مرزوق الخطيب، 1981، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح.: ماري خيسو سبيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- ابن منظور (جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم الأنصاري)، د.ت، لسان العرب. تح.: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، فصل الشين، مادة شرط، القاهرة.
- أبو حمو موسى الزباني، 1279هـ.، واسطة السلوك في سياسة الملوك، المطبعة الدولية التونسية، المحمدية- تونس.
- أبو يعقوب إسحاق بن أبي إسحاق القراب الحافظ، 1409هـ. / 1989م، فضائل الرمي في سبيل الله تعالى، مكتبة المنار - أبي الوليد اسماعيل بن الأحمر، الزرقاء - الأردن.
- الأنصاري عبد الحميد، 1998، الشورى وأثرها في الديمقراطية، دار الفكر العربي.
- التليسي بشير رمضان، وجمال هشام الذويب، 2004، تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. 2، المدار الإسلامي.
- التتسي محمد عبد الله، 2011، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان - مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، موفم للنشر، الجزائر.
- الحاج محمد بن رمضان شاوش، 1995، باقة السوسن في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية.
- الحميداني نمر بن محمد، 1994، ولاية الشرطة في الإسلام، رسالة دكتوراه، ط. 2، دار عالم الكتب، الرياض.
- الطمار محمد بن عمرو، 1984، تلمسان عبر العصور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- العبدري البلسني محمد، 1428هـ. / 2007م، الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، بونة- الجزائر.
- الفيروز أبادي، 1429هـ. / 2008م، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة.
- القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، 1405هـ. / 1985م، مسند الشهاب ج. 1، تح.: حمدي عبد المجيد السلفي، ط. 1.
- الماوردي أبو الحسن على بن محمد بن حبيب، 1409-1989م، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة دار ابن فتيبة، الكويت.
- المعلمي يحيى، 1402 هـ.، الشرطة في الإسلام، ط. 2، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة.
- المقرئ التلمساني، 1358هـ. / 1939م، أزهار الرياض، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، المغرب.
- المقرئ التلمساني، 1388هـ. / 1968م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الأستاذ الدكتور عباس إحسان، دار صادر، بيروت- لبنان.
- الوزان حسن، 1983، وصف إفريقيا، ط. 2، دار الغرب الإسلامي.

- حاجيات عبد الحميد، 1394هـ/2013م، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- حساني مختار، 2009، تاريخ الدولة الزيانية، الجزء الثاني الأحوال الإقتصادية والثقافية، منشورات الحضارة، الجزائر.
- حسن إبراهيم حسن، 1416هـ./1996م، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجبل، بيروت.
- شاوش محمد بن رمضان والغوثي بن حمدان، 2001م، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، داود بريكسي: الكشبان - تلمسان.
- شقدان بسام كامل عبد الرزاق، 1422هـ./2002م، إشراف د./ أبو رميله هشام، تلمسان في العهد الزياني 633هـ-962هـ/1235م-1555م، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
- عادل نويهض، 1400هـ/1980م، معجم أعلام الجزائر، ط.2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت- لبنان.
- علي محمد رضا، د.ت، جوانب من تقنيات التوقيت وأدوات الرصد في المغرب الإسلامي.
- فيلاي عبد العزيز، 2002م، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر.
- مرتاض محمد، 2004م، من أعلام تلمسان - مقارنة تاريخية - فنية-، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.